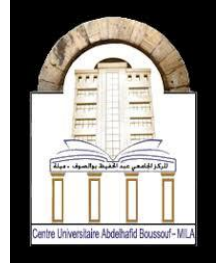


الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية  
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي  
المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف



-ميلة-

قسم اللغة والأدب العربي

معهد الآداب واللغات

## استراتيجية الخطاب في الرسالة الجديدة لابن زيدون مقاربة تداولية

مذكرة تخرج مكملة لمتطلبات نيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي

تخصص: أدب عربي قديم

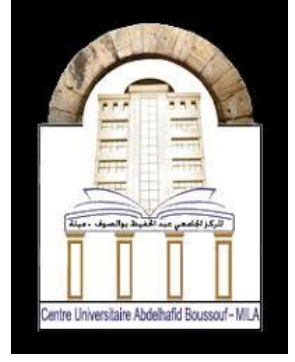
إشراف الأستاذة:  
❖ شهرزاد بوسكاية

إعداد الطالب:  
❖ جمال بوربيع

السنة الجامعية: 2024/2023



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية  
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي  
المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف  
-ميلة-



قسم اللغة والأدب العربي

معهد الآداب واللغات

## استراتيجية الخطاب في الرسالة الجديدة لابن زيدون مقارنة تداولية

مذكرة تخرج مكملة لمتطلبات لنيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي

تخصص: أدب عربي قديم

إشراف الأستاذة:

❖ شهرزاد بوسكاية

إعداد الطالب:

❖ جمال بوربيع

السنة الجامعية: 2024/2023

# شكر وعرفان

○ أحمده بي وأشكره على فضله العظيم والكبير والكريم علي أن أعاني ووفقي ويسر لي ويسرن لي لأن أكون مفتاح خير.

○ أحمده بي وأشكره على نعمة محمد (صلى الله عليه وسلم) الذي حشنا على التعلم وبذل الجهد من أجل العلم ولم يجد ذلك عمرا.

○ أشكر أستي الصغيرة على تشجيعي ودفعي إلى المزيد من النجاحات في المستقبل.  
○ أشكر جريد الشكر عائلتي الكبيرة، أساتذتي كل باسمه، من علمني منهم ومن بث في روح التحدي، وأقول لهم: «أنتم تاج على رأسي كلكم بدون استثناء».

○ أخص بشكري الجريد الأستاذة المشرفة التي لم تبخل علي بنصائحها، ولم تدع لي فرصة للتهاون ولا للتقاعس، فأبقاها الله وخرها للعلم وطلبته.

○ كما لا أنسى كل من أعاني بابتسامته، بدعائه، وبتنقلي معه كل صباح في طلب العلم، وكل من اعتبرني قدوة له في تحدي هذا.

# مقدمة



## مقدمة

يمتد التراث الادبي العربي القديم بجذوره إلى زمن بعيد، من العصر الجاهلي، ثم الفترة الإسلامية، مروراً بالدولتين الأموية ثم العباسية، وصولاً إلى الأندلس، وينتهي بانتهاء حكم العثمانيين للجزائر، والمتتبع لسلسلة التاريخ عبر هذه الفترات يكتشف أن حلقاتها مليئة بكنوز نفيسة من المعارف والعلوم في شتى المجالات والتخصصات.

وطالما أن هناك من يحاول جاهداً لتزييف هذا التراث وتحريفه، أو حتى طمسه، فإنه من الواجب الثقافي والأدبي إخراج مكونات تراثنا ونشرها على حقيقتها، ثم إن البحث في مثل هكذا مواضيع تثير حب الفضول، ومعرفة كنه الوقائع والأحداث التي جرت قديماً، لاسيما تلك المتعلقة بالحضارة العربية الإسلامية.

ولأن التداولية منهج حديث في البحث يعتمد اللغة كعنصر أساسي في دراسة الخطاب ضمن استراتيجياته الأربع، وذلك أثار فضولي لمحاولة تطبيقه على النص الادبي العربي القديم شعره ونثره. ولأجل ذلك كله آثرت البحث في التراث الأندلسي، وبالتحديد في أدب ابن زيدون من خلال الرسالة الجديدة، وقد عنونت البحث بـ: "استراتيجيات الخطاب في الرسالة الجديدة لابن زيدون مقاربة تداولية"

وتكمن أهمية دراسة هذا الموضوع من حيث تنوع النص؛ ففيه جزء شعري وآخر نثري، زيادة على اللغة الفخمة التي وظفت فيه، ثم كون النص (الرسالة الجديدة) تتوفر على الاستراتيجيات التداولية الأربع وآلياتها.

ومن المهم جداً قبل البحث في ثنايا هذه الدراسة، تحديد إشكالياتها المتمثلة في:

- ما هي استراتيجيات الخطاب التي استخدمها ابن زيدون في رسالته؟
- هل تحقق توظيف كل الاستراتيجيات، بأدواتها ووسائلها وآلياتها؟
- كيف كان التأثير النفسي للأديب في الأداء اللغوي داخل الرسالة؟

وقد استعان البحث بدراسات سابقة لإثراء مادته العلمية، وتدعيم أفكاره وآرائه، ومنها على سبيل الذكر: مقال لأحمد عرابي بعنوان: "استراتيجية الإقناع في الخطاب اللغوي التواصلية"، ومقال لـ: زواوي أمال تحت عنوان: "المداخل النظرية لتحليل مفهوم السلطة، ومقال لكل من صارة مزياني وفاتح حملي بعنوان: "الاستراتيجية التوجيهية في رسائل يوسف بن تاشفين مقارنة تداولية".

والنتائج التي توصلت إليها هذه الدراسات -في عمومها- تتحدد في مدى أهمية استعمال آليات ووسائل اللغة في الخطاب التواصلية، وما مدى التعمق في دراسة بلاغة اللغة العربية، لأن ذلك يتيح للمخاطب فرصة التنوع في توظيف آلياتها وأدواتها، ومعرفة أسرارها ليسهل عليه الوصول إلى غايته وأهدافه.

وطالما أن البحث مركز على شخصية أدبية متميزة، في علمها وأدبها ولغتها وتاريخها، وفي بيئتها ونفسياتها، فالمنهج الذي أراه مناسباً ويخدم البحث من جميع جوانبه هو المنهج التداولي المدعم بآليات من المنهج التاريخي ومنهج التحليل النفسي.

فالتداولية تغوص بالباحث في تفاصيل استعمالات اللغة الظاهرة منها والمخفية، لاسيما البلاغية منها، والتي تتحكم في تغير المعاني والأداء اللغوي. أما عن آليات المنهج التاريخي فهي تعرف بطبيعة البشر الذين عايشوا الأديب وشكلوا بيئة مؤثرة في شخصيته. وأما عن الآليات المتعلقة بالتحليل النفسي، فتساعد على فهم وتفسير ردود الأفعال التي تعبر عن عواطف الأديب من خلال رسالته الجديدة.

وقد انتظمت المادة العلمية للبحث في فصلين: فأما الأول فيعالج في مبحثين -على التوالي- مفهوم الاستراتيجية اصطلاحاً وأنواعها الأربعة، ثم مفهوم الخطاب واستراتيجية الخطاب. أما الفصل الثاني فيدرس الجزء التطبيقي المتمثل في المدونة، وتطبيق المقاربة

التداولية على الرسالة، وإبراز ما مدى توافق آليات ووسائل المنهج التداولي على شعر ونثر المدونة.

وقد ارتكز البحث على مصادر ومراجع كانت له وللباحث سنداً ومعيناً للمضي قدماً في إنجازهِ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر، "ديوان ابن زيدون ورسائله" لعلي عبد العظيم، و"ديوان ابن زيدون رسائله وأخباره شعر الملكين" لكامل كيلاني وعبد الرحمن خليفة، "الموازنة بين أبي تمام والبحتري" للآمدي، و"علم النفس والأدب" لسامي الدروبي، و"نوابغ الفكر العربي ابن زيدون" لشوقي ضيف، "استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية" لعبد الهادي بن ظافر الشهري.

غير أن المتعة لا تكتمل للباحث إلا إذا اصطدم بالصعوبات التي تجعله يبذل المزيد من الجهد، ويكتف البحث ليصل إلى تذليلها. ومن جملة هذه الصعوبات التي واجهت البحث والباحث: تطبيق المنهج -على جدته- لأول مرة، لاسيما أنه يتطلب جهداً مضاعفاً لفهمه، كذلك البحث عن النصوص التي تتوافق مع آليات وأدوات المنهج.

وقد كانت لتوجيهات الأستاذة المشرفة -جزاها الله عني خيراً- ونصائحها الدور الفعال في تذليل الصعوبات وتفسير المبهم، ولذلك فالشكر كل الشكر على تعاونها وأدائها التوجيهي البسيط الذي ينم على مدى اهتمامها بالعلم وأهله.

غير أن الباحث قد يحس في ختام عمله ببعض نشوة الفرح، وقد يصيبه الغرور أيضاً، ومنه فالعلم بحر لا حدود له، والداخل إليه عليه أن يتحلى بالحكمة والتواضع وعدم القناعة، لأنه في النهاية يتمنى لو فعل كذا ولم يفعل كذا، فالإحساس بالنقص عند الباحث يضمن له الاستمرار.

# الفصل النظري:

## ضبط مصطلحات الدراسة

## المبحث الأول: الإطار المفاهيمي

يعد التخطيط المسبق من اللبّات الأساسية لنجاح أي عمل وثبات نتائجه، ولقد اتفقت جل المعاجم والقواميس إن لم تكن كلها على أن مصطلح الاستراتيجية هو فن التخطيط العسكري؛ بتحديد الوسائل لبلوغ الأهداف المسطرة.

### المطلب الأول: تعريف الاستراتيجية

جاء في معجم المعاني الجامع ما يأتي: «خطة شاملة في أي مجال من المجالات. وضعت الحكومة استراتيجية للنهوض بالاقتصاد الوطني»<sup>1</sup>.

وجاء في قاموس "المنهل" (قاموس فرنسي-عربي) لفظة (Stratégie) بمعنى: «احتراب (فن الحروب، علم الخطط الحربية)، استراتيجية؛ تخطيط، تدبير، تنظيم»<sup>2</sup>.

فالاستراتيجية إذن تعني التخطيط المسبق لأي عمل من الأعمال، فالمفهوم الاصطلاحي للاستراتيجية متفق عليه وإن اختلفت مجالات استخدامه، فهي علم أو فن انتقاء وتحديد الوسائل والأهداف ضمن خطة دقيقة للوصول إلى الهدف، ويسري هذا المفهوم على التخاطب بين الأشخاص.

<sup>1</sup> معجم المعاني الجامع، معنى الاستراتيجية، تح: أحمد الشرقاوي إقبال، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1993م.

<sup>2</sup> قاموس المنهل (قاموس فرنسي-عربي)، سهيل إدريس، دار الآداب، ط46، بيروت، لبنان، 2015م، ص1149.

## المطلب الثاني: تعريف الخطاب

### أولاً: الخطاب لغة

جاء في لسان العرب لابن منظور بأن مادة (خ - ط - ب) جاءت كالاتي: «الخطب: الشأن والأمر، صغر أو عظم، وقيل: هو سبب الأمر....، والخطب: الأمر الذي تقع فيه المخاطبة، والشأن والحال.... وخطب بالضم، خطابة بالفتح: صار خطيباً. والخطاب والمخاطبة: مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطاباً، وهما يتخاطبان»<sup>1</sup>.

أما في القاموس المحيط للفيروز أبادي في مادة (خ - ط - ب) ما يأتي: «الخطب، الشأن، والأمر صغر أو عظم، ج: خطوب. وخطب المخاطب على المنبر خطابة بالفتح وخطبة بالضم، وذلك الكلام: خطبة أيضاً، أو هي الكلام المنثور والمسجح ونحوه»<sup>2</sup>.

يستشف مما جاء في التعريفين لمادة (خطب) أنهما متقاربان إلى حد بعيد، فكلاهما يعتبر الخطب هو الشأن، وكلاهما يعتبر الخطبة أو الخطاب كلاماً، وإن كان الفيروز أبادي قد زاد عليه لفظتي المسجوع أو المسجح والمنثور.

### ثانياً: الخطاب اصطلاحاً

يعد البحث في مفهوم المصطلح أمراً ليس بالسهل، لاسيما إذا اختلط مفهومه بين أهل الاختصاص، ولذلك وجب على الباحث أن يطلع على كذا رأي، ويحاول لملمة ما تحصل عليه في شكل مفهوم تقريبي، وينحصر عادة الخلاف حول أصل المفهوم وميدانه وعلاقته

<sup>1</sup> لسان العرب، ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم، دار صادر، بيروت، لبنان، مج1، ص360-361.

<sup>2</sup> القاموس المحيط، الفيروز أبادي مجد الدين محمد بن يعقوب، تح: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، إشراف محمد نعيم العرقسوسي، (دط)، (دت)، ص81.

ووظيفته<sup>1</sup>، ومن ثم لابد من الاستعانة بهذه العناصر لتقريب الفهم، وهي العناصر المقربة لمعرفة ماهية المصطلح.

وعلى هذا الأساس الفلسفي للمفهوم، نحاول مقارنة مفهوم الخطاب في فلسفة فوكو، باعتباره مفهوماً إشكالياً، سواء من حيث العناصر المشكلة له، أو من حيث الوظائف التي يقوم بها<sup>2</sup>. ولذلك يصعب الخروج بمفهوم دقيق يكون مرجعاً لمن يبحث عن ماهية المصطلح، فمعناه عند بعض الفلاسفة هو: «نظام من العمليات الذهنية القائمة على مجموعة من القواعد المرتبة ترتيباً منطقياً، فهو عملية ذهنية تنجز بواسطة عمليات أساسية ظرفية ودائمة»<sup>3</sup>.

هذا الرأي الفلسفي يحتاج في الحقيقة إلى إعمال الذهن لتفكيكه وتحليله وفهمه، كونه يحتوي على مجموعة من المصطلحات. إلا أن مفهوم الخطاب بدأ ينساب -نوعاً ما- سهلاً مع الفيلسوف الفرنسي "ميشيل فوكو" الذي يعرفه فيقول: «...هو أحياناً يعني الميدان العام لمجموع المنطوقات، وأحياناً أخرى مجموعة متميزة من المنطوقات، وأحياناً ثالثة ممارسة لها....»<sup>4</sup>.

بهذا التعريف يكون فوكو قد حدد نطاق الخطاب وهو اللغة؛ فتارة يكون هو المصعب للغة، وثانية يكون الخطاب هو نفسه تلك اللغة المميزة والمعبرة، وتارة أخرى هو تلك الممارسة الفعلية لتلك اللغة، وأظنه قد لمس الحقيقة.

<sup>1</sup> ينظر، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، الزواوي بغورة، المجلس الأعلى للثقافة، (دط)، (دت)، 2000م، ص12.

<sup>2</sup> مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، مرجع سابق، ص14.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص92.

<sup>4</sup> المرجع نفسه، ص94.

إذا كان تعريف الخطاب لغويا -كما سبق- هو الكلام المسجوع والمنثور، فإن معناه كمصطلح في النقد الحديث هو عبارة عن منظوقات وتشكلات لغوية تنتظم فيما بينها لتؤدي وظيفة تفاعلية بين الناس ليقنع بعضهم البعض<sup>1</sup>.

وعليه يمكن الاستنتاج:

أن هناك اتفاقا على أن الخطاب كلام مرسل، سواء أكان مكتوبا أم مشافهة.

أن هذا الكلام يحمل معنى يبلغ للآخر قصد الإفهام، وذلك تماما ما لخصه ابن منظور والفيروز أبادي في كلمة خطبة.

وهذا يتقارب في معناه مع ما جاء به فلاسفة اليونان؛ إذ وصفوا الخطاب بأنه مجموعة من العمليات الذهنية القائمة على قواعد مرتبة ترتيبا منطقيا. بمعنى أنه ناتج عن العقل ويقبله العقل.

أن هذا المعنى لا يتنافى مع ما جاء به "فوكو"، كون الخطاب مجموعة متميزة من العبارات المركبة تحمل رسالة مفهومة.

### المطلب الثالث: مفهوم استراتيجية الخطاب

قبل المضي في تحديد مفهوم الاستراتيجية في إطار الخطاب التواصلية المعاصر، يتعين البحث في مفهوم الخطاب العام، غير أنه لابد من العودة إلى تراثنا العربي القديم للاطلاع ولو بالشيء اليسير على آراء بعض النقاد القدماء في مفهوم الخطاب؛ حيث يفهم من

<sup>1</sup> ينظر، مصطلح الخطاب بين التراث العربي والفلسفة الحديثة: تنوع في الدلالات وثراء في المعاني، الشريف مرزوق، العدد2، المجلد6، 2020، جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي، الجزائر، ص61.



آرائهم أنهم على اتفاق على أنه -أي الخطاب- توجيه الكلام نحو الغير للإفهام<sup>1</sup>، أو هو ذلك الكلام الذي يستتبط منه المخاطب معنا معيناً<sup>2</sup>.

من خلال التعريفين السابقين، يفهم أن الخطاب يتطلب على الأقل شخصين ينتقل الكلام بينهما، ثم لابد من وجود معنى متضمن داخل الخطاب، على أن يكون هذا المعنى مفهوماً يستفاد منه.

ثم إضافة إلى ذلك ينبغي أن يتوفر الخطاب على رسالة قصد التأثير في المتلقي، وهذا الأخير عليه أن يكون متهيئاً لاستيعاب الرسالة وما تحتويه، ولديه كامل القدرة على تحليلها ودراستها في ذهنه للخروج منها بنتيجة مفهومة واضحة.

فالكلام إذن يشترط فيه أساساً إفهام المستمع، وإلا لا يسمى خطاباً<sup>3</sup>، وبناء عليه فالخطاب هو ذلك الكلام المنتقل بين المتكلم والمخاطب، يحمل في طياته رسالة مفهومة المعنى يراد بها التأثير، لكن هل فهم المتأخرون أو عرفوا الخطاب تعريفاً يتطابق مع تعريف المتقدمين؟

تعددت المفاهيم المتصلة بالخطاب، كون اللفظة في حد ذاتها تحمل معان متعددة، وترتبط بمجالات مختلفة؛ كاللغة والسياسة و.... فميشال فوكو يقول: «سندعوا خطاباً مجموعة من المنطوقات بوصفها تنتمي إلى ذات التشكيلة الخطابية، فهو ليس وحدة

<sup>1</sup> ينظر، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد شكري، تح: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية، (دط)، بيروت، لبنان، (دت)، ج2، ص61، نقلاً عن مفهوم الخطاب عند القدماء، مصطفى عبد الكاظم الحسناوي، القادسية، ص78.

<sup>2</sup> ينظر، التوقيف في مهمات التعاريف، عبد الرؤوف المغاوي، تح: عبد الحميد صالح حمدان، عالم الكتب، ط1، 1990م، ص156، نقلاً عن المرجع نفسه.

<sup>3</sup> ينظر، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، التهانوي محمد بن علي، تح: رفيق العجم وعلي دحروج، مكتبة لبنان، ط1، لبنان، 1996م، ص749، نقلاً عن المرجع السابق.

بلاغية... بل هو عبارة عن عدد محصور من العبارات التي نستطيع تحديد شروط وجودها»<sup>1</sup>.

من خلال هذا التعريف يتبين أن الخطاب في مفهومه الدقيق لا ينطبق على أي تعبير كلامي ما لم يكن مرتبطاً ومحدداً بفترة زمنية معينة من التاريخ، وفي حدود اجتماعية وجغرافية<sup>2</sup>.

معنى ذلك أنه إذا كان المتقدمون قد اشترطوا للخطاب شروطاً، ومنها على وجه الخصوص إفهام المستمع، فإن ميشال فوكو قد حدد شروطاً أو ظروفًا ينبغي توافرها كي يؤدي الخطاب مهامه على أكمل وجه، كمناسبة الزمان والمكان والظرف الاجتماعي والاقتصادي و....

وهذه النظرة لميشال فوكو تشبه إلى حد بعيد ما ذهب إليه البلاغيون القدماء باعتبارهم أن البلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته.

يمكن العودة إلى ما قاله علماؤنا في التراث العربي القديم في هذا الشأن: «وليس بالضرورة أن يكون قولهم مطابقاً في صياغته مع ما جاء به المتأخرون»<sup>3</sup>، وإنما الأهم من ذلك معرفة مدى تطرقهم لمثل هذه المصطلحات الجديدة ولو في معناها.

بمعنى آخر هل كان لهؤلاء العلماء منهج واضح يضع تخطيطاً مسبقاً لصناعة الشعر أو تجهيز الخطبة وإقائها؟ فالآمدي (ت 370هـ) يفصل في طريقة ووسائل صناعة الشعر

<sup>1</sup> حفريات المعرفة، ميشال فوكو، تر: يفوق، المركز الثقافي العربي، ط2، بيروت، الدار البيضاء، 1987م، ص108، نقلاً عن تحليل الخطاب عند ميشال فوكو، محمد بن سباع، ص134.

<sup>2</sup> حفريات المعرفة، ميشال فوكو، مرجع سابق، ص109.

<sup>3</sup> ينظر، سميرة شادلي وآخرون، نظرية المطابقة بين الإرث البلاغي ودراسات سيد قطب، مجلة عود الند (مجلة ثقافية فصلية رقمية)، العدد 27، 2008م.

وغيره من الصناعات إذ يقول: «زعموا أن صناعة الشعر وغيرها من سائر الصناعات لا تجود وتُستحَكَمُ ألا بأربعة أشياء: جودة الآلة، وإصابة الغرض المقصود، وصحة التأليف، والانتهاء إلى تمام الصنعة»<sup>1</sup>.

فالشعر خطاب يتطلب مخاطباً ومخاطباً، وعلى الشاعر أن يراعي كل صغيرة وكبيرة قبل الخوض في صناعته، فغاياته من هذه الصناعة أن يصل إلى إرضاء قارئه، مراعيًا الدقة في إصابة المقصود، بلا زيادة في ذلك ولا نقصان<sup>2</sup>.

غير أنه على الشاعر أن يتخير لنفسه ولمخاطبه الظروف المناسبة ويتنبه للبيئة التي تحيط بالقارئ، وكل ذلك وغيره يتأتى له بالتخطيط المسبق والحساب الدقيق.

ففهم البيئة المحيطة بالمخاطب أولاً، ثم بالمخاطب ثانياً، والإلمام بأسرارها يعد من أولويات فهم نفسية السامع؛ حيث تسمح بالتعامل معه بحسب محيطه ذاك، تماماً كما حدث مع الشاعر "علي بن الجهم مع الخليفة العباسي"<sup>3</sup>، فكونه -أي الشاعر- لم يراع البيئة الجديدة التي دخل إليها وقع في المحذور.

فدراسة النسق العام والسياق المحيط بعملية التخاطب يسهل عملية التوصيل، وبالتالي وصول الرسالة مفهومة، ويتضح ذلك جلياً في قول بشر بن المعتمر: «ينبغي للمتكلم أن

<sup>1</sup> الموازنة بين شعر أبي تمام والبحثري، الأمدي أبو القاسم الحسن بن بشر، تح: السيد أحمد صقر عبد الله المحارب، دار المعارف، ط4، القاهرة، 1994م، ج1، ص426.

<sup>2</sup> ينظر، المرجع نفسه، ص نفسها.

<sup>3</sup> ديوان علي بن جهم، تحقيق: خليل مردمبك، دار الآفاق الجديدة، ط2، بيروت، لبنان، 1400هـ/1980م، ص117.

يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً، ولكل حالة من ذلك مقاماً....»<sup>1</sup>.

يتضح من كلام بشر بن المعتمر أنه بالإضافة إلى مراعاة المقام أو السياق، وجب على الشاعر أن يراعي أيضاً الحالات المختلفة التي تدخل وتتدخل في صناعة الشعر، كالحالات المعرفية والأسلوبية واللغوية للسامع<sup>2</sup>.

يستشف من ذلك أن النقاد القدماء لم يهملوا لا صغيرة ولا كبيرة إلا وتحدثوا عنها ونبهوا إليها، فخطاباتهم كلها اتسمت بالتشديد على صناع الشعر وغيره، وضرورة مراعاة المكونات الشخصية والبيئية للسامع، وقد توافقت آراؤهم بذلك - مع آراء النقاد المعاصرين وإن لم تأت في صياغة واحدة.

يستخلص مما سبق أن مفهوم الاستراتيجية قديم، وأنه مستمد من الخطط الحربية للجيش بالدرجة الأولى، غير أنه تسرب إلى باقي المجالات الحياتية، ولا يزال محافظاً على تلك السمة الراقية التي اكتسبها، فقد صار ينسب إلى المجال الذي يستخدمه؛ كأن يقال: الاستراتيجية المالية أو الاستراتيجية التربوية، أو استراتيجيات الخطاب.

إن مفهوم الاستراتيجية كان معروفاً عند القدماء بالممارسة فحسب دون تنظير، وقد وظفوه في الأداءات النقدية والأدبية؛ كالصناعة الشعرية والخطابية، وحددوا له اتجاهه ووسائله وأهدافه.

<sup>1</sup> المثل السائر، ابن الأثير ضياء الدين، تح: محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، (دط)، بيروت، 1995م، نقلاً عن نظرية الشعر عند ابن رشيق القيرواني (ماجستير)، فريدة مقالاتي، إشراف محمد زرقان، جامعة الحاج لخضر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2008/2009، ص129.

<sup>2</sup> ينظر، المرجع نفسه، ص نفسها.

وبتغير الزمان والمكان، يتطور مفهوم استراتيجية الخطاب ليتضمن مجموعة من الحثيات اللغوية، والشروط الفنية التي ينبغي توافرها في عملية التخاطب بين المرسل والمتلقي، فانبثقت عن ذلك مجموعة من الاستراتيجيات هي كالآتي:

## المطلب الرابع: مفهوم التداولية

### أولاً: لغة

جاء في المعجم الوسيط: «دال الدهر دولا، ودولة: انتقل من حال إلى حال، والأيام دارت، ويقال: دالت الأيام بكذا،....تداولت الأيدي الشيء: أخذته هذه مرة وهذه مرة<sup>1</sup>....»  
فالتداول إذن، هو التعاقب على استعمال الشيء، وينطبق ذلك على الخطاب بين طرفيه، فيأخذ كل منهما دوره في إرساله واستقباله.

### ثانياً: اصطلاحاً

جاء في معجم المصطلحات في مفهوم التداولية وقد خصص لها صاحب المعجم ثلاثة مداخل: براغماتية تداولية ذرائعية.

وينتهي صاحب المعجم إلى أن مفهوم براغماتية وتداولية ليسا إلا مفهوماً واحداً.

«فالتداولية جزء من السيميائية التي تعالج العلاقة بين العلامات ومستعملي هذه العلامات، فهي تعنى بدراسة استعمال اللغة في الخطاب»<sup>2</sup>.

1 المعجم الوسيط، مجموعة من المؤلفين، مكتبة الشروق الدولية، ط2، 1972م، القاهرة، ج.م.ع، ص227-228.

<sup>2</sup> التداولية في المعاجم العربية قراءة في معجم المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، نعمان بوقمرة، مجلة الممارسات اللغوية، العدد5، 2011، البويرة، الجزائر، ص148،149،153.

## المبحث الثاني: الاستراتيجيات في خطاب ابن زيدون

### المطلب الأول: أنواع الاستراتيجيات

#### أولاً: الاستراتيجية التضامنية ومضمونها

ترتبط نشاطات الإنسان اليومية بعلاقاته مع الآخرين من حيث نجاحها أو فشلها، أو من حيث تسارعها أو تباطؤها، كونه كائناً اجتماعياً، كما تبرز شخصية هذا الإنسان من خلال تلك العلاقات؛ إذ تظهر نوعية تلك العلاقات تماشياً مع طبيعة شخصيته، ومن ثم يسعى في كل الأحوال إلى أن يوازن بين ما هو ذاتي وبين ما هو خارج عن نطاقه، بغية الحصول على رثم منتظم في تلك العلاقات. لأن هناك عاملين يتدخلان في اختيار استراتيجية تعامل البشر مع بعضهم، أولهما تلك العلاقات التي تربطهم - قديمة كانت أو حديثة -، وثانيها السلطة التي قد يمتلكها أحدهم على الآخر<sup>1</sup>.

وتنشأ السلطة عادة نتيجة علاقتين غير متوازنتين، فيعلو أحدهما على الآخر، فيغدو أحدهما تابعا والآخر متبوعاً، وتتمظهر أيضاً في تلك القوة المعنوية والقدرة على فرض الطاعة لمن هم دون هذا المسؤول أو ذاك وحملهم على الخضوع إليه<sup>2</sup>.

ويمكن أن نستنتج من الممارسات السلطوية - إن صح القول - أنماطاً متنوعة من تأثيرها - أي السلطة - على الآخرين، حيث تؤثر بالتحفيز، بالإكراه، بالعودة إلى ثقافة المروءوس، كما تؤثر بالخبرة التي يملكها المتبوع.

<sup>1</sup> ينظر، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، بيروت، لبنان، 2004م، ص256.

<sup>2</sup> ينظر، المداخل النظرية لتحليل مفهوم السلطة، زواوي نوال، مجلة مدارات للعلوم الاجتماعية والإنسانية، المركز الجامعي غليزان، العدد3، جانفي 2021، الجزائر، ص574.

وهناك أنواع متعددة للسلطة؛ كالسلطة السياسية، السلطة الشرعية، والسلطة القانونية، لكن الذي يهم البحث من بين هذه الأنواع وغيرها هو سلطة الخطاب، وما له من علاقة به؛ كسلطة المتكلم في النص، وسلطة اللغة.

وتتجلى سلطة المتكلم من خلال النص الذي أنتجه، ومن خلال فاعليته في اللغة، وتأثيره في تشكيلها وتركيبها<sup>1</sup>. ومن ثم يعد النص بنوعيه الشعري والنثري من الوسائل الموصلة إلى الغايات التي يقصدها المتكلم، كونه يحتوي بين جملة وكلماته بنية متكاملة لما كان يخطط له صاحبه للوصول إلى مقصده لدى القارئ أو المستمع. غير أنه يشترط في نص المتكلم شروطاً كي يمتلك السلطة التامة وهي: «استقلالية النص، وبنيته، ومقصدية، ومقبوليته، ووظيفته، وإفادته، ثم المناسبة المقامية والتناص»<sup>2</sup>.

ويشرح عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) هذه الشروط في كتابه (دلائل الإعجاز) من خلال أفكاره التي صبها فيه، وتمثل طبيعة التفكير الذي وصل إليه علماؤنا حينذاك، حيث يقول في معرض حديثه عن وظيفة اللغة: «مما يعلم ببدائه أن الناس إنما يكلم بعضهم بعضاً ليعرف السامع غرض المتكلم ومقصوده»<sup>3</sup>، وليس المجال مجال التفصيل في هذه الشروط، وإنما تكفي الإشارة إليها بما يتماشى وحاجة البحث، غير أنه قد تصادف الباحث مواقف تضطره لشرح بعضها، لاسيما في معرض شرح مضمون الاستراتيجيات، وقد سيق هذا

<sup>1</sup> ينظر، سلطة المتكلم في النص ودلالة المقصدية عند عبد القادر الجرجاني، يوسف بن نافلة، دراسات لسانية، العدد2، مجلد5، جامعة حسنية بن بوعلي، الشلف، 2021/12/20، ص123.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص نفسها

<sup>3</sup> دلائل الإعجاز في علم المعاني، الجرجاني عبد القاهر، تح: محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1988م، ص374.

الكلام حول السلطة وسلطة المتكلم لإبراز مدى التأثير الذي يتركه كل من المتكلم وخطابه لدى المرسل إليه.

ويأخذ الخطاب الاجتماعي منحنيين؛ فإما أن يكون عموديا عندما تكون السلطة عند أحدهما -يعني طرفي الخطاب- وإما أفقيا عند تساوي درجاتهما الاجتماعية، ويقبل المرسل التضامن مع المرسل إليه، غير أن هذا الحكم ليس مطلقا؛ فقد يمتلك المرسل السلطة ويرغب في التضامن مع المرسل إليه<sup>1</sup>.

يمكن أن تتضح الرؤية أكثر بهذا المثال: دخل صديقان الكلية الحربية، وبعد انتهاء مدة التكوين، نال أحدهما رتبة أعلى من الآخر وصار مسؤولا على صديقه. فالعلاقة بينهما كما يفرضها قانون الخدمة هي علاقة عمودية مطلقة داخل المؤسسة، غير أنه بإمكان المسؤول أن يجعلها علاقة أفقية بسيطة بعد انتهاء الدوام. وهذا يعود إلى شخصيته، فهذا كما يقول عبد الهادي بن ظافر الشهري: «....أما إذا تلفظ المرسل بالخطاب وفقا لما تقتضيه سلطته، ولم يتنازل عنها، فإنه يستعمل عندها استراتيجية أخرى هي الاستراتيجية التوجيهية، وذلك يوضح أن التضامن والسلطة يرتبطان بعلاقة متضادة»<sup>2</sup>. فالتضامن إذن يقتضي شخصية ولغة وأسلوبا يتماشى مع طبيعة العلاقة القائمة؛ كالعبارات اللطيفة، وأسلوب التودد، والكلمات الرقيقة.

فالتضامن إذن هو تلك الرغبة من المرسل في المحافظة على العلاقة القائمة بينه وبين المرسل إليه، والحرص على إذابة وإزالة الفروق بينهما والتقرب منه أكثر، فبالعودة إلى المثال السابق تتجلى الاستراتيجية التضامنية؛ حيث أنه وبعد انتهاء دوام العمل بالمؤسسة،

<sup>1</sup> ينظر، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، مرجع سابق، ص 257.

<sup>2</sup> استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، مرجع سابق، ص 257.



يغير كل من الصديقين ملابس العمل، ويخرجان خارج أسوار المؤسسة، ومن ثم تتغير اللغة وكلماتها وجملها، وتعود العلاقة إلى أفقيتها -إن صح القول- ويحس كل منهما بذلك التقارب والبساطة. «وتعتني استراتيجية التضامن في المقام الأول بالجانب الأخلاقي مع التأكيد على جانب التبليغ»<sup>1</sup>.

وعليه يمكن الاستنتاج من كل ما سبق أن الاستراتيجية التضامنية هي تلك الخطة المرسومة ذهنياً مسبقاً عند المرسل، قوامها الأخلاق والتبليغ بلغة مهذبة غايتها ومقصدها المحافظة على التقارب الحاصل بين المرسل والمرسل إليه. وهذا التعريف ليس مطلقاً أو تاماً، وإنما هو نسبي كما يقول ابن ظافر الشهري: «ورغم هذا، يمكن الحدس بمفهوم الاستراتيجية التضامنية تقريباً.... وإجمالاً هي محاولة التقرب من المرسل إليه، وتقريبه»<sup>2</sup>.

فالاستراتيجية التضامنية مبنية على العلاقة البسيطة بين طرفي الخطاب، تتخللها المنفعة المشتركة التي ينشدها كلا الطرفين. وتكون مجسدة في تلك العبارات التواصلية المهذبة، والتي لا تتم على أدنى معنى للسلطة التوجيهية.

## ثانياً: الاستراتيجية التوجيهية ومضمونها

سبق القول أن المرسل قد يعيد ترتيب أولوياته وفق ما يراه مناسباً لمصلحته وتحقيقها؛ فقد يلجأ إلى سلوك أسلوب مغاير، فلا يكثر لتأسيس علاقة ولا إلى التقرب من المرسل إليه، وحجته في ذلك اختصار الوقت، لأن العامل الزمني -في نظره- مهم في مثل هكذا

<sup>1</sup> الاستراتيجية التضامنية في قصة شعيب -عليه السلام- في القرآن الكريم: مقارنة تداولية، إيهاب سعد شاطر، اللغويات والثقافات المقارنة، العدد 1، مج 14، 2022م، جامعة الفيوم، مصر، ص 1829.

<sup>2</sup> استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، مرجع سابق، ص 257.

تعاملات، فيستغني عما يقربه من الآخر<sup>1</sup>، مكتفيا بالأوامر التوجيهية ومستعينا بسلطته كعامل مؤثر، إذن: «السلطة والمقصد لهما أثر كبير على المرسل في اختيار وترجيح استراتيجية معينة للتعبير عن قصده وبلوغ هدفه....»<sup>2</sup>.

وهنا لا ينبغي فهم السلطة -كما سبق القول- على أنها ذلك الكم الكبير من الأوامر، وقد تكون مصحوبة بالتهديد والوعيد، وإنما قد يكون المرسل تحت سلطة اللغة التي تفرض عليه نمطا معيناً من الألفاظ والعبارات، وقد يقع تحت سلطة المجتمع، كأن يكون هناك قضايا تمس بأخلاقه وعاداته، وعليه أن يتماشى مع ذلك، وقد تكون سلطة القانون، وهو مجبر على تطبيقه حرفياً خوفاً من العقاب طبعاً.

ولذلك يتسم أسلوب هذه الاستراتيجية بكثرة الأمر والنهي والتحذير والاستفهام<sup>3</sup>، أي أن المرسل إليه يكون موجهاً من قبل المرسل بما يقتضيه السياق والظروف المحيطة بهما، وتبعاً للمقصد الذي يبتغيه المرسل من وراء اختياره لهذه الاستراتيجية.

فبالنظر إلى طبيعة العلاقة التي تربط المرسل والمرسل إليه في ظل الاستراتيجية التوجيهية، ثمة مسافة تفصل بينهما، وتزداد اتساعاً كلما أحس المرسل إليه أن قصد المرسل من أوامره أو نواهيه أو نداءاته هو التعبير عن تعاليه وتسلطه.

غير أنه، وعلى المستمع أن يعي أيضاً أن هناك سياقات تتطلب الحزم والصرامة وحتى الشدة؛ فلا تنفع اللغة المهذبة ولا العبارات المتأدبة. فعلى سبيل المثال: الكل يعلم أن الأمن هو العمود الذي ترتكز عليه البلدان، فلا شيء يستقيم من غير أمن، لذلك ترى مسيري

<sup>1</sup> ينظر، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، مرجع سابق، ص322.

<sup>2</sup> الاستراتيجية التوجيهية في رسائل يوسف بن تاشفين: مقارنة تداولية، صارة حزياني وفتح حملي، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، العدد5، المجلد9، 2020م، جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي، الجزائر، ص747.

<sup>3</sup> ينظر، الاستراتيجية التوجيهية في رسائل يوسف بن تاشفين: مقارنة تداولية، ص749.

المؤسسات الأمنية هم أكثر الناس جهلاً بأسلوب اللباقة إلا نادراً. لأن سياق عملهم لا يسمح بالخطأ، ولا باللامبالاة، ولا بالتغاضي. ولذلك يصف ابن ظافر الشهري الخطاب في مثل هذه الظروف قائلاً: «ومن هذا المنطلق فإن الخطاب ذا الاستراتيجية التوجيهية يعد ضغطاً وتدخلًا ولو بدرجات متفاوتة على المرسل إليه، وتوجيهه لفعل مستقبلي معين»<sup>1</sup>.

والحقيقة أن المتكلم لا يلام، كون هناك أناس لا يقدرون الأمور حق قدرها ولا يبالون بخطورة الوضع إذا كان أمنياً، لذلك وحتى لا تنفلت الأمور إلى الأسوأ، وجب على القائمين والمسؤولين أن يتصرفوا على قدر عظم المقام أو السياق، ويقصد هنا السياق الأمني، كمثال يكون فيه التوجيه صارماً، ويختلف طبعاً - التوجيه بحسب المكان والزمان وأهمية التوجيه.

فمن المفيد إذن أن يعرف القارئ أن اختيار الاستراتيجية التوجيهية، إنما هو نابع من مصلحة تعود على المتكلم، أو على المخاطب، أو على كليهما معاً. لذلك يجد المخاطب نفسه مقيداً بقيود والتزامات تحول بينه وبين التصرف بحرية مطلقة، ولو كانت هذه القيود بسيطة. فالاستراتيجية التوجيهية خطاب يبلغ به المخاطب لإلزامه على القيام بأفعال أو الامتناع عن أخرى، تأتي في شكل أمر أو نهي أو نداء أو تحذير أو إرشاد أو دعاء أو....<sup>2</sup>

فهذه الاستراتيجية في حقيقتها انضباطية، جيء بها لرسم الحدود والأطر التي تسمح للمرسل إليه بالتحرك بداخلها، أي أنها لا تمنع الحركة منعاً باتاً - كما يتصور للبعض - وإنما يراد منها التأثير الذي يراد من ورائه الاستقامة والاعتدال في السلوك، «كذلك يركز الخطاب التوجيهي على جبهة المنفعة منه، وهو ما يجعل أحكام الأفعال التوجيهية تسلك اتجاهين إما

<sup>1</sup> استراتيجيات الخطاب: مقارنة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، مرجع سابق، ص 322.

<sup>2</sup> ينظر، الاستراتيجية التوجيهية في خطاب إبراهيمي: مقارنة تداولية، محمد مدور، مجلة إبراهيمي للآداب والعلوم الإنسانية، العدد 2، 2020م، جامعة غرداية، الجزائر، ص 108.

الوجوب أو الندب....<sup>1</sup>، وذلك بحسب مصلحة كل طرف من طرفي الخطاب، فإذا كانت المصلحة متعلقة بالمخاطب فحكم الفعل التوجيهي الوجوب، وإن كانت المصلحة تميل للمخاطب فحكمه الندب.<sup>2</sup>

غير أنه قد يأتي السياق أحيانا مخالفا لما تقتضيه البيئة والظروف المحيطة بالحوار وطرفيه، فيضطر المرسل تضمين خطابه رسائل مشفرة، تتم على أن الحالة التي يعيشها استثنائية مثلا-، لذلك يلجأ إلى التلميح.

### ثالثا: الاستراتيجية التلميحية ومضمونها

يستطيع المتكلم أن يتأقلم مع المتغيرات التي تحصل من حين إلى آخر، وذلك بتغيير دلالات اللغة، قصد إيصال رسالته مفهومة، ومنه يعتبر السياق المحور الرئيس في عملية التواصل؛ فهو المسؤول المباشر في اختيار نوعية الخطاب الملائم الموجه للمخاطب. كيف ذلك؟

يمكن الاستعانة بمثال يتضح به المقال، يقول المثل الشعبي: «مَدَّ رَجْلِيكَ عَلَى قَدِّ لَبْسَاطٍ»، وهو خطاب موجه لكل شخص يراد له العفاف والكفاف في عيشه، وقد استعملت الكناية فيه بدل التصريح ليصل معنى المثل الشعبي مؤثرا ويحفظ بسرعة.

<sup>1</sup> الاستراتيجية التوجيهية في رسائل يوسف بن تاشفين: مقاربة تداولية، مرجع سابق، ص 748.

<sup>2</sup> ينظر، المرجع نفسه، ص نفسها.

فالاستراتيجية التلميحية تعتمد على ما هو غير مباشر؛ كالمجاز والتلميح، والكناية في التواصل، ولها في ذلك مبرراتها<sup>1</sup>؛ كون السياق لا يسمح بالتصريح؛ كالأمور السرية التي لا تتناسب مع التصريح.

«فالتلميح في التواصل بين المتحدثين استراتيجيات خطابية غير مباشرة»<sup>2</sup> يلجأ إليها المخاطب تعويضاً عن المباشرة في خطابه لإيصال قصده وهروباً من تحمل المسؤولية، والإيحاء للمرسل إليه بالفكرة التي ينوي إيصالها، ثم الابتعاد عن السقوط في المحذور اللغوي<sup>3</sup>. غير أنه تجدر الإشارة إلى أمر مهم في هذا الشأن، وهو أن تكون لدى المخاطب الدراية الكافية لفهم العبارات والرسائل التي تصله تلميحاً.

ولذلك يمكن أن يأتي الخطاب إلى المخاطب بلغة مباشرة صريحة، إلا أنها تحمل في ثناياها مقصداً آخر غير الذي صرحت به أصوات الكلمات أو حروفها، ومن ثم فهو -أي المخاطب- مطالب بأن يقوم بإعمال للذهن ليميز بين ما هو ظاهر، وبين ما هو مستتر، «وعليه، فيمكن أن نعرف الاستراتيجية التلميحية بأنها الاستراتيجية التي يعبر بها المرسل عن القصد بما يغاير معنى الخطاب الحرفي»<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> ينظر، التلميح في الخطاب الأدبي نثر الدّر للآبي نموذجاً، غفران علي مفتن الكعبي وجميل بدوي حمد الزهيري، مجلة قراءات، العدد 1، مجلد 14، جامعة واسط، العراق، ص 443.

<sup>2</sup> البعد التلمحي للخطاب الشعري عند أحمد شوقي: مقارنة تداولية، عدنان ثامر، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، العدد 3، مجلد 10، 2021م، ص 1116.

<sup>3</sup> ينظر، البعد التلمحي للخطاب الشعري عند أحمد شوقي: مقارنة تداولية، مرجع سابق، ص 1116.

<sup>4</sup> استراتيجيات الخطاب: مقارنة لغوية تداولية، مرجع سابق، ص 370.

وهو في ذلك يريد تحقيق مزيد من الإنجاز في أفعاله اللفظية؛ أي أنه لما أحسّ بأن التعبير المباشر لا يفي بالغرض كما يحب هو، لجأ إلى التلميح ليكون له هامش واسع يعبر فيه عن كل ما يريد<sup>1</sup>.

بمعنى آخر يمكن للمخاطب -في هذه الحالة- أن يجعل الرسالة التي وصلته من المخاطب قناة للعبور إلى المقصد الحقيقي من وراء ما جاء في محتوى الرسالة. «ولذا فإن تعرف المخاطب على الفعل الإنجازي غير المباشر من خلال البنية اللغوية للملفوظ والعملية الاستدلالية التي يقوم بها هو يعد اكتشافا لغير المنطوق به دون أن تكون بينهما علاقة تضمن منطقيته»<sup>2</sup>.

ومن هنا يمكن القول بأن الاستعداد المسبق الذي يتحلى به المخاطب، والذي يجعل نفسيته مهينة أكثر لاستقبال هكذا ملفوظات، يعد أمرا ضروريا وحيويا باعتبار أنه يضطر لإجراء عملية بحث واستدلال للوصول إلى النتائج، ومن ثم إلى الإقناع.

#### رابعاً: استراتيجية الإقناع ومضمونها

الإقناع هو مبتغى كل داع إلى دعوته؛ فقد سعى إليه الأنبياء -على نبينا وعليهم الصلاة والسلام- من قبل في دعوتهم لتوحيد الله عز وجل، واجتهد الفلاسفة والمفكرون في الحضارات القديمة كذلك لأجل استمالة الناس لاتباع أفكارهم، ولأزال الأمر سارياً إلى اليوم.

إلا أن عمود هذا الأسلوب قديماً وحديثاً هو حججه، فمن أفلح في عرض حججه فقد استمال إليه الناس، ومن كانت حجته ضعيفة خاب سعيه، لذلك تجد الخطباء يستتجدون

<sup>1</sup> ينظر، استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، مرجع سابق، ص 370.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص نفسها.

بالقرآن الكريم تارة، وبالحديث الشريف ثانية، وبأشعار الحكمة أخرى لأجل الظفر بقلوب المستمعين<sup>1</sup>. لذلك ذهب محمد أبو زهرة في معرض حديثه عن أدلة الخطبة قائلاً: «....ولكن بما يستخدمه الخطيب من وسائل يرفع ذلك الظن في نفوس السامعين إلى مرتبة اليقين، بل يجعله في أعلى درجاته»<sup>2</sup>.

وتقديم الخطاب مدعماً بالأدلة الواضحة المقنعة، فيها مصلحة لكلا الطرفين؛ فالمخاطب يبلغ ما عليه أن يبلغه عن علم ودراية، والمخاطب يستقبل هذا العلم لينير به عقله، وقد حث الله تعالى البشر لإعمال عقولهم والتفكير في دلائل قدرته وبراهين إعجازه، إذ يقول: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة الغاشية، ١٧ - ٢٠]. فهذه الدعوة إذن لإعمال العقل والتفكير في الخلق إنما هي الخطوة الأولى للإقناع، ولكن عن علم وإقناع.

ولم يخالف النبي صلى الله عليه وسلم منهج ربه في الدعوة إليه؛ حيث سلك سبيل الإقناع وإزالة اللبس والشك عن نفوس الناس الذين يرغبون في اتباعه، مستعينا في ذلك بمقومات متنوعة كـ: «قوة وحسن البيان، والسلوك والقدوة الحسنة، وبيان العلة، والتقابل والتشابه وضرب الأمثال، وتقديم الدليل والبرهان، والعاطفة»<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> ينظر، الخطابة: أصولها تاريخها في أزهى عصورها عند العرب، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، ط2، الكويت، 1980م، ص47.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص29.

<sup>3</sup> أساليب الإقناع وتأثيراتها الإيجابية من خلال الأحاديث النبوية، سلاف لقيط، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، ص905.

فبالنظر إلى هذه المقومات الدعوية في خطابه، يستنتج أنه لم يعتمد على نمط معين في جميع الحالات، وإنما اتخذ لكل مقام مقال -كما قيل- وإنها البلاغة عينها، إذ يتخير لكل سياق خطابه المناسب، ومما جاء عنه صلى الله عليه وسلم، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَدِمَ رَجُلَانِ مِنَ الْمَشْرِقِ نَخَطَبَا فَعَجِبَ النَّاسُ لِبَيَانِهِمَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا أَوْ إِنَّ بَعْضَ الْبَيَانِ لَسِحْرٌ» أخرجه البخاري في صحيحه: ح (5325)، كتاب الطب، باب إن من البيان سحرا.

يستشف مما سبق أن الخطاب الناجح المقنع ينبغي أن يحوز على تركيبة من الدعائم؛ بدءا من الحجج البالغة، مروراً بالجاذبية لأسماع الناس، وانتهاء بسحرهم، أي إقناعهم واستمالتهم، وقد تظهر الحجة في المقابلة والمقارنة. «فإن الأشياء تتميز بأضدادها وتعرف بنظائرها. وهي معين الاستدلال الخطابي»<sup>1</sup>.

ولذلك نجد في كتب السنة كثيرا من الأحاديث النبوية الشريفة التي يذكر فيها النبي صلى الله عليه وسلم أخلاق بني إسرائيل مع أنبيائهم، والغاية من ذلك مقابلة الناس لما يفعلوه بأعمالهم وتكون لهم عبرة، ويحصل الاقتناع والإقناع، فَعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ قَالَتْ: «أَنَّ قُرَيْشًا أَهْمَهُمْ شَأْنُ الْخَزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا مَنْ يَكْلِمُ عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالُوا مَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ» ثُمَّ قَامَ نَخَطَبَ فَقَالَ: «إِنَّمَا هَلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَأَيْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا» صحيح النسائي الرقم 4914 وصححه الألباني.

<sup>1</sup> الخطابة: أصولها تاريخها في أزهي عصورها عند العرب، مرجع سابق، ص37.



ولأجل الهدف نفسه -أي الإقناع- دارت مناظرات عبر التاريخ بين علماء من مختلف المشارب، كان همّ كل طرف منهم تغيير موقف الطرف الثاني، وردّه عن اتجاهه، سواء أكان ديناً أم مذهباً سياسياً، كالمناظرة التي دارت بين الأشعري والجبائي وكان موضوعها "تسمية الله تعالى بالحكيم وامتناع تسميته بالعقل"<sup>1</sup>.

والذي يهم البحث من هذه الالتفاتة نحو المناظرة، معرفة سبل الإقناع التي تستعمل في هذا النوع من الخطبة، كالأليات اللغوية الحجاجية، وتحتوي على الروابط الحجاجية، وتستخدم لتماسك الخطاب وترتيبه مثل لكن للاستدراك، لأن للتعليل والتوكيد<sup>2</sup>.

ومنه يمكن الاستنتاج أن استراتيجية الإقناع تستعمل أدوات متنوعة؛ لغوية، إيحائية، مقارنة، مقابلة،.... وهي تقنيات يتمكن منها المخاطب إذا أحسن استعمالها في سياقها الصحيح. كما استخدم السياسيون تقنيات إقناعية لجذب أكبر عدد من الأنصار، وعادة ما يفصح عنها في المحافل الكبرى، أو في الحوارات داخل القنوات الفضائية. وقد توصلت كاتبنا مقال بحثنا فيه هذه التقنيات، وخلصنا إلى أن السياسيين يستخدمون خمس تقنيات شائعة وهي كالاتي: «الشدة، التكرار، الإطار، الأسئلة الخطابية، والادعاءات الصريحة»<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> الدر النصيد في أدب المفيد والمستفيد، أبو البركات بدر الدين محمد بن محمد الغزي، تحقيق: أبو يعقوب نشأت بن كمال المصري، مكتبة النوعية الإسلامية للتحقيق والنشر والبحث العلمي، ط2، القاهرة، ج.م.ع، 2009م، ص417.

<sup>2</sup> ينظر، بلاغة الإقناع في المناظرة الدينية: نماذج مختارة، بلحاج ميمونة وبلعجين سفيان، مجلة فصل الخطاب، العدد4، المجلد11، 2022م، جامعة ابن خلدون، تيارت، الجزائر، ص69.

<sup>3</sup> استراتيجيات الإقناع المستخدمة في معالجة قضايا حقوق الإنسان في البرامج الحوارية ومدى تفاعل الجمهور معها عبر شبكات التواصل الاجتماعي، لارا أمجد محمد ومنارا فؤاد ابراهيم، المجلة العربية لبحوث الاتصال والإعلام الرقمي، العدد4، 2023م، ص269.

وهذا يبين دور السياق وحسن استغلاله؛ بتوظيف لغته المناسبة ألفاظها التي تعبر عن الواقع، من حيث الشدة والحماس والمقارعة وإبراز قيمة الهيئة السياسية أو الحزب. فالكل استعمل آلياته التي تتماشى مع محيطه وبيئته.

بعد الإشارة إلى بعض مجالات استخدام استراتيجية الإقناع وآلياتها المستعملة في كل مجال، تبقى فقط الإشارة إلى أن هذا التنوع مرده إلى تنوع البيئة، وأيضاً إلى العلاقة التي تربط المخاطب مع مخاطبيه، «وتختلف الاستراتيجيات التي تسهم في ذلك من ناحية العلاقة بين طرفي الخطاب، أو من ناحية تجسيدها لشكل الخطاب اللغوي»<sup>1</sup>.

غير أنه -ومن خلال تلك المجالات- تبين أن المخاطب إنما كان استخدامه لهذه الاستراتيجية لتحقيق مآرب نفعية، ومنه يمكن الوقوف على مفهوم نسبي لاستراتيجية الإقناع بحسب ما ورد عند ابن ظافر الشهري وغيره، فاستراتيجية الإقناع -بناء على ما سبق- هي خطاب يتخذ معيار الهدف غاية له بشقيه المكتوب والشفهي، يتسلح بحجج لإقناع العاطفة، وبحيل لغوية من أجل تحقيق مآرب نفعية<sup>2</sup>.

وتتباين هذه الاستراتيجية من مجال إلى آخر، كالمجال السياسي والإداري والديني، غير أنه كما يقول الشهري: «ويمكن أن يتوخى المرسل في الخطاب الواحد استراتيجيات مختلفة، أو يتوخى استراتيجية واحدة في أصناف متعددة من الخطاب»<sup>3</sup>.

إلا أن القارئ يمكن أن يميز بين هذه الاستراتيجيات بالنظر إلى مواقف المرسل مع المرسل إليه، وأيضاً بالنظر إلى ردة فعل هذا الأخير اتجاه نوعية الخطاب.

<sup>1</sup> استراتيجيات الخطاب: مقارنة لغوية تداولية، مرجع سابق، ص444.

<sup>2</sup> استراتيجيات الخطاب بين الدراسات النظرية والممارسات الواقعية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، مرجع سابق، ص7.

<sup>3</sup> استراتيجيات الخطاب بين الدراسات النظرية والممارسات الواقعية، مرجع سابق، ص7.

من خلال الإطلالة على أنواع الاستراتيجيات ومضامينها، يمكن تصنيفها بحسب المعيار الذي ارتكزت عليه كل استراتيجية لإيصال الخطاب؛ فالاستراتيجيتان التضامنية والتوجيهية اعتمدتا المعيار الاجتماعي، بينما اكتفت التلميحية بالمعيار اللغوي، وأما استراتيجية الإقناع فاعتمدت على معيار الهدف من الخطاب.

## المطلب الثاني: خطاب ابن زيدون

تركت الحياة العامة في الأندلس بصمتها الإيجابية الواضحة على المدن والقرى؛ فأضحت في مجملها جنات غناء، واغتنى بغناها ساكنوها مسلمين كانوا أم من الأجناس الأخرى؛ فقد أتاحت لهم فرصة تعلم العلم والأدب ونشره في أصقاع الأرض<sup>1</sup>.

عاش ابن زيدون في هذه البيئة الثرية، في أسرة ثرية، «فهو من بيت حسب ونسب، وكان أبوه ثريا صاحب أموال وضياع»<sup>2</sup>. ألفت هذه البيئة على ابن زيدون بغناها، فانفلقت قرائح إبداعه غزيرة غزارة مياه الأندلس، فتكونت له شخصية مفعمة بهذه الحياة، توافقه إلى اغتنام كل لحظة من أيامها، وإلى زيارة كل شبر من أرضها.

حمل ابن زيدون معه علمه وأدبه الذي تلقاه عن أبيه وشيوخه، وراح يسيح في أرض الأندلس؛ بين قرطبة وإشبيلية، ينظم الشعر تارة، ويكتب النثر تارة أخرى، وهو الذي يقول عن نفسه<sup>3</sup>:

وَجَدَنِي عِلْمٌ تَوَلَّتْ فُنُونُهُ      كَمَا يَتَوَالَى فِي النَّظَامِ سَخَابٌ\*

<sup>1</sup> ينظر، نوابغ الفكر العربي: ابن زيدون، شوقي ضيف، دار المعارف، ط11، القاهرة، (دت)، ص7.

<sup>2</sup> نوابغ الفكر العربي: ابن زيدون، شوقي ضيف، مرجع سابق، ص15.

<sup>3</sup> ينظر، نوابغ الفكر العربي: ابن زيدون، مرجع سابق، ص19.

\* السَّخَابُ: العَقد، ذيد دونه: منع عنه، اللواب، العطش، نجّدي: حنّني

وحق له أن يفخر بنفسه طالما تربى وسط هذا الجو من العلوم والحضارة والخيرات، لذلك كانت عاطفته جياشة سواء أفي مدحه أم في رثائه. ومنه، والذي يهتم البحث النظري في هذا السياق هو شعره ونثره الذي قاله في عمله كسفير أو سياسي، ثم ذلك الذي قاله في رثاء أمه، وما قاله في حبه لولّادة، ومن ثم يقسم إلى قسمين: خطاب سياسي، وخطاب عاطفي.

### أولاً: الخطاب السياسي

يقول صاحب الذخيرة: «حدثني غير واحد من وزراء إشبيلية قال: لما خلاص ابن عبد البر من يد عباد،.... بقيت حضرته من أهل هذا الشأن أعرى من ظهر الأفعوان،.... فهمّ يوماً باستخلاف أبي عمر الباجي المشهور أمره،.... فكأن أبا الوليد غصّ بذلك،.... فكانت الكتب تنفذ من إنشاء أبي الوليد إلى شرق الأندلس،....»<sup>1</sup>.

أي أن أبا الوليد (ابن زيدون) لم يعجبه هذا الاستخلاف، وطمع هو في ذلك، فراح يبعث بالرسالة تلو الأخرى كي يظفر بهذا المنصب. وقد ظفر بمنصب السفارة عند ابن جهور لمزايا كان يتمتع بها، ذكرها أبو مروان ابن حيان في كتابه\*، ونقلها عنه ابن بسّام" «....ونوّه أيضاً بفتى الآداب وعمدة الظرف، والشاعر البديع الوصف والرصف، أبي الوليد أحمد بن زيدون ذي الأبوة النبيلة بقرطبة،.... وقصّره بعدُ على مكانه من الخاصة والسفارة بينه وبين الرؤساء، فأحسن التصرف في ذلك وغلب على قلوب الملوك»<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، الشنتريني أبو الحسن علي بن بسّام، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، (دط)، بيروت، لبنان، مج1، 1417هـ/1997م، ص337.

\* المقتبس في تاريخ الأندلس، لأبي مروان بن حيان بن خلف بن حسين القرطبي، مؤرخ، بحّاث من أهل قرطبة، كان صاحب لواء التاريخ في الأندلس، ولد في 377هـ وتوفي في 427هـ.

<sup>2</sup> الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مرجع سابق، ص337.

وإنما نال ابن زيدون تلك المكانة إلا بفضل ملكة الكلام الفصيح والحلو، فاكتسب به قلوب الحكام، فلم يدع لهم الفرصة إلا ليقبلوا طلباته ويلبوا له رغباته، ومما قاله في أول زيارة له إلى إشبيلية هذه الأبيات يمدح "المعتضد" قائلاً:

|                                          |                                                      |
|------------------------------------------|------------------------------------------------------|
| لَمُعْتَضِدٍ بِهِ أَرْضَاهُ سَعِيًّا     | فَأَقْبَلَ وَجْهَهُ وَجْهَ الْفَلَاحِ                |
| فَمَنْ قَاسَ الْمُلُوكَ إِلَيْهِ جَهْلًا | كَمَنْ قَاسَ النُّجُومَ إِلَى بَرَّاحٍ*              |
| وَمُعْتَقِدُ الرِّيَاسَةِ فِي سِوَاهُ    | كَمُعْتَقِدِ النُّبُوَّةِ فِي سُبْحَانٍ <sup>1</sup> |

ومعنى ذلك أن الأمير المعتضد بالله استعان بالله واعتمد عليه فجعل الفلاح حليفاً له والنجاح موازياً له.

لم يدع ابن زيدون إلا أن يتابع حركات وسكنات الأمير المعتضد بالله، وهذه المرة سجل الشاعر للأمير نصراً مؤزراً بعد حروب طاحنة بين المعتضد بن عباد والمظفر بن الأفطس، فقال في هذا الشأن:

|                                                   |                                                                |
|---------------------------------------------------|----------------------------------------------------------------|
| وَنَهَجَكَ سُبُلَ الرَّشْدِ فِي قَمْعٍ مِنْ غَوَى | وَعَدْلَكَ فِي اسْتِصْالٍ مِنْ جَارٍ وَاعْتَدَى                |
| وَأَنْ بَاتَ مَنْ وَالَاكَ فِي نَشْوَةِ الْغِنَى  | وَأَصْبَحَ مَنْ عَادَاكَ فِي غَمْرَةِ الرَّدَى                 |
| وَبَشْرَاكَ دُنْيَا غَضَّةٍ الْعَهْدِ طَلْقَةً    | كَمَا ابْتَسَمَ النَّوَارُ عَنْ أَدْمَعِ النَّدَى <sup>2</sup> |

ويشرح محقق الديوان معنى الأبيات -في هامش الصفحة- بقوله: هنيئاً للدين أنك سلكت في صداقته سبيل الرشاد ولتأديب الغواة الضالين، وأنت التزمت العدالة في القضاء على البغاة الظالمين<sup>1</sup>.

\* برّاح: متسع من الأرض لا زرع فيه ولا شجر، سجاح: فتاة مسيحية ادعت النبوة أثناء الردة

<sup>1</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، تح: علي عبد العظيم، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، (دط)، جمهورية مصر العربية، (دت)، ص 433.

<sup>2</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مرجع سابق، ص 468.

فابن زيدون - ومن خلال هذين النموذجين - يسعى جاهدا لتقوية علاقة الحب والصدقة مع الأمير؛ ذلك بأنه لا تفوته حركة يقوم بها إلا ونظم له فيها شعرا ولو كانت بسيطة، ليشعره أنه قريب منه ويمكنه الاعتماد عليه، بمعنى آخر؛ أضحى ابن زيدون ناطقا رسميا للأمير ومن مستوى عالٍ، وكل ذلك ينم عن نفس طموحة بلا حدود.

### ثانيا: الخطاب العاطفي (النفسي)

إذا كان الأدب ابن بيئته، فكيف بالنفوس التي أنتجت هذا الأدب؟ الأندلس - كما يصفها علي عبد العظيم في مقدمة ديوان ابن زيدون ورسائله - «أيكة وارفة الظلال، دانية القطوف، يانعة الثمار، غردت عنادها فترة من الزمان، فملأت القلوب والأسماع، وبهرت النفوس والألباب»<sup>2</sup>.

إن المتمعن في هذا الوصف لا يسعه التعليق إلا أن يقول: لا شك أن نتاج أهلها الثقافي والأدبي يضاهي جمالها أو يزيد، لاسيما إذا علم أنها كانت محجّا لطالبي العلم من كل فجوج الأرض.

جمال هذه الأرض بما تحمله الكلمة من معنى أضفى على شعرائها وأدبائها جنوحا نحو العواطف العميقة، جسدها في الشعر وفي النثر على حد سواء، غير أن ابن زيدون فاق شعراء الأندلس، بل كان زعيمهم، «يعد في الرعيل الأول من شعراء العربية في جميع

<sup>1</sup> ينظر، ديوان ابن زيدون ورسائله، مرجع سابق، ص 468.

<sup>2</sup> نوابغ الفكر العربي: ابن زيدون، مرجع سابق، ص 9.

المواطن والأزمان، ومكانته في النثر قريبة من مكانته في الشعر، فاستحق أن يجذب إليه قلوب الأدباء في عصره وما تلاه من عصور»<sup>1</sup>.

فشخصية ابن زيدون تأثرت بهذه البيئة، كما تأثرت بأفكار والده وشيوخه الذين تتلمذ على أيديهم، لاسيما إذا علمنا أنهم لم يتركوا له فرصة للهو والمجون كباقي فتيان الأندلس، وتلك كانت وصية أبيه قبل وفاته؛ فقد سلمهم ابنه وهو واثق من تنشئته على أيديهم كما لو كان بين يديه<sup>2</sup>.

نشأ ابن زيدون إذن في بيئة ملؤها الثراء والغنى في جانبها الاقتصادي، ساحرة وجذابة في جانبها الطبيعي، مزدهرة بعلومها وأعلامها، وأسرة متمسكة بأصولها، محافظة على قيمها، وشيوخ فاض العلم والأدب من بين شفاهم، «فأبوه فقيه من سلالة بني مخزوم القرشيين، وجده لأمه صاحب الأحكام الوزير أبو بكر محمد»<sup>3</sup>.

فكل شيء حوله يوحى بالسمو، فكيف لا ينطبع ذلك في نفسية ابن زيدون، ويورثه شخصية متعالية ومعجبة بذاتها؟ فكان نتاج ذلك أن أبدع في أدبه بشهادة من عايشوه؛ فاتسم هذا الأدب بالراقي، كقول ابن بسّام: «وقد أخرجت من أشعاره التي هي حبول وغرر،.... ورسائله التي أخرست ألسنة الحفل....»<sup>4</sup>.

لكن، ماذا لو يتم البحث والتدقيق -ولو يسيرا- في المكونات النفسية للأديب؟

<sup>1</sup> نوابغ الفكر العربي: ابن زيدون، مرجع سابق، ص10.

<sup>2</sup> نوابغ الفكر العربي: ابن زيدون، مرجع سابق، ص15.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص نفسها

<sup>4</sup> الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مرجع سابق، ص339.

جاء في كتاب "علم النفس والأدب" لسامي الدروبي في فصله الثالث المعنون بـ: "بين علم الطباع والأدب"، أنه ناقش فيه دراسة قام بها عالمان هولنديان، القصد منها معرفة كيفية انتقال صفات الآباء إلى الأبناء بالوراثة، وخلص العالمان -بحسب ما ورد في الكتاب- إلى أنه بعد الحصول على أزيد من ألفين وخمسمائة وثلاث وعشرين نسخة من إجابات الأسر حول تسعين سؤالاً طرحت عليهم تبين أن الأجوبة التي تلقاها العالمان حول صفات عداها - أي العالمان - مقومات أساسية للطبع، وهي: الانفعالية والفعالية والترجيع<sup>1</sup>.

يمكن الإشارة إلى معاني هذه المقومات قصد تبيان مدى انعكاسها على شخصية الإنسان، فالانفعالية تعني ردة فعل الشخص حول حدث أو خبر مروع -مثلاً- سمعه لأول وهلة، فإذا كانت ردة فعله حركات وصراخ وتأثر، فذلك شخص انفعالي، وإن كانت ردة فعله الهدوء واللامبالاة مما حدث، فذلك شخص غير انفعالي، «والواقع أن جميع الناس انفعاليون، ولكنهم يتفاوتون في درجة الانفعالية....»<sup>2</sup>.

غير أن هذه الانفعالية متباينة بين الناس من حيث التعبير؛ بمعنى آخر، نوعية الفعل الذي قام به؛ بغض النظر عن حركات الجسم أو علامات التأثير، القصد هنا هو هل كانت ردة فعل الشخص إيجابية أم سلبية؟ وتلكم هي الفعالية، أي أن الشخص يكون إيجابياً مهما تأثر بالحوادث والأخبار، ويستمر في عمله ونشاطاته بشكل عادي، بمعنى أوضح لا تؤثر فيه انفعالاته.

أما الترجيع فهي حالة نفسية؛ كمن حرك البئر الصافية فتعكر ماؤها ثم عادت إلى صفائها مجدداً في وقت قصير، ويعبر حديثاً عن مثل هذه الحالات بأن هذا الشخص له قابلية

<sup>1</sup> ينظر، علم النفس والأدب، سامي الدروبي، دار المعارف، ط2، القاهرة، (دت)، ص155.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص157.



نفسية لامتناص الصدمات، «فالناس اثنان: واحد ذو ترجيع قريب، وواحد ذو ترجيع بعيد»<sup>1</sup>.

إن القصد من هذه الالتفاتة النفسية لشخص ابن زيدون، هو محاولة إسقاط نتائج هذه الدراسة على نفسيته لمعرفة ما مدى تأثير الحوادث والفتن على نفسية الشاعر، فهل كانت سببا إضافيا في إبداعاته الأدبية؟ أم أنها أثرت فيه فجعلته سلبيا؟ وهل كان رجاءا قريبا؟ أم رجاءا بعيدا؟

وستتضح بين سطور التحليل بعض من الإشارات التي ترسلها سلوكيات ابن زيدون من خلال تعامله مع الأحداث والوقائع التي مرّ بها، والتي يستنتج منها التفاصيل الدقيقة لشخصيته، وذلك بالتمعن في لغته الموظفة في شعره ونثره. «ما كاد الشاعر يبلغ العشرين حتى دفعته العواصف السياسية دفعا إلى الإسهام فيها، لأن مكانة أسرته ومطامحه كانت تستدعي هذه المشاركة»<sup>2</sup>.

وقد بدأ نشاط ابن زيدون بالمشاركة والمساهمة في استقرار الوضع بقرطبة بعد أن اتفق الناس على اختيار ابن جهور على حكم قرطبة ريثما يستتب الأمن، واتخذ ابن زيدون ناطقا رسميا على لسانه، يذيع فضائله وينشر محاسنه ويدعو الجمهور إلى الاستمساك به<sup>3</sup>.

غير أن ابن جهور سجن صديقة المدافع عنه، وهنا تبرز شخصية ابن زيدون في انفعالاته الإيجابية أو السلبية، حيث جاء في رسالته الجدية التي بعث بها إلى ابن جهور

<sup>1</sup> علم النفس والأدب، مرجع سابق، ص158.

<sup>2</sup> أعلام العرب: ابن زيدون، علي عبد العظيم، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، (دط)، القاهرة، 1967، ص83.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص84.

يستعطفه: «وَهَلْ لَبَسَ الصُّبْحُ إِلَّا بُرْدًا طَرَزَتْهُ بِفَضَائِكَ وَتَقَلَّدَتْ الْجَوَازُ إِلَّا عِقْدًا فَصَلَّتْهُ بِمَآثِرِكَ وَاسْتَمَلَى الرَّيِّعُ إِلَّا ثَنَاءً مَلَائَتْهُ مِنْ مَحَاسِنِكَ وَبَثَّ الْمِسْكُ إِلَّا حَدِيثًا أَذَعَتْهُ فِي مَحَامِدِكَ»<sup>1</sup>.

فهذه ردة فعل تتم عن شخصية متماسكة غير متسرعة تعترف بالجميل، فابن زيدون لا يريد أن يفرط في طموحاته بمجرد الكبوة الأولى؛ يسعى إلى أن يظهر فضل ابن جهور عليه حتى وهو في سجنه، فالغاية إذن تبرر الوسيلة -كما يقال- ومن الحكمة أن يستمسك بحلاوة اللسان وطيب الكلام، عسى الله أن يجعل له بعد ذلك مخرجا.

فابن زيدون لا يتخلى عن طموحاته بهذه السهولة، وإن بدا هادئا فإنما هو انخفاض بسيط كي تمر الأزمة بسلام، وتبقى المسيرة نحو الهدف الأسمى مستمرة، «ولعله كان يطمح أن يكون هو الحاكم الفعلي»<sup>2</sup>.

وأطماعه هاته جعلت الحساد والوشاة يكثرون من حوله، وكثرت بذلك دسائسهم، إلا أن ابن زيدون -كما يبدو- لا يحتاط لذلك، ولا يتعامل بحذر معهم، ولذلك يقول علي عبد العظيم: «وإذا درسنا نفسية كل من ابن جهور وابن زيدون، فإننا نجدهما على طرفي نقيض؛ فالأمير متواضع متعفف والشاعر مغرور طموح، والأمير متزمت وقور والشاعر متحرر ومتهور....»<sup>3</sup>.

غير أن هذا الأمر أو هذا الحكم يبدو نسبيا -بعض الشيء- لاسيما بالنظر إلى ما تخفيه كل شخصية في نفسها؛ فكلاهما يطمح في حكم قرطبة، إلا أن الاختلاف في المنهج

<sup>1</sup> ديوان ابن زيدون، تح: علي عبد العظيم، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، (دط)، جمهورية مصر العربية، (دت)، ص701.

<sup>2</sup> ديوان ابن زيدون، مصدر سابق، ص28.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، صفحة نفسها.

يظهر ذلك؛ فأما ابن جهور فيسير بخطى حثيثة، يظهر الورع والتعفف للمنصب أمام الناس ليكسب ودهم واحترامهم، وأما ابن زيدون فاتخذ الظهور المباشر أمام ابن جهور ومن حوله.

هذه نفسية ابن زيدون في جانبها السياسي، أما جانبها العاطفي الغرامي فتجسده علاقته بولادة التي فاز بقلبها، وفازت بكل ما عنده، «فكلاهما كان شاعرا مفتونا بالموسيقى والغناء، ميالا إلى معاقرة الشراب، وكلاهما كان وسيما ظريفا حاضر البديهة هذب الحديث؛ وكلاهما من صفوة الطبقة الراقية وسنهما متقاربة؛ وكلاهما أعزب؛ فلا عجب إذا جذب الهوى شبيها إلى شبيهه»<sup>1</sup>.

ولذلك جاء شعره نحو ولادة مفعما بالعاطفة، يُسرُّ ويزيح الستر على ما يخفيه ابن زيدون اتجاه ولادة، غير أن الذي كان يستره في قلبه انكشف للعلن، ولم يعد مخفيا على أحد؛ حيث قال:

يَا مَنْ غَدَوْتُ بِهِ فِي النَّاسِ مُشْتَرَا  
قَلْبِي عَلَيْكَ يُقَاسِي الْهَمَّ وَالْفَكْرَا  
إِنْ غَبْتَ لَمْ أَلْقَ إِنْسَانًا يُؤَانِسُنِي  
وَإِنْ حَضَرْتَ فَكُلُّ النَّاسِ قَدْ حَضَرَا<sup>2</sup>

انتشر خبره هذا بين الناس وذاع صيته، ووجدها حاسدوه فرصة للتفريق بينه وبينها، وترك ذلك ضيقا في قلبها اتجاهه، غير أنه اعتذر إليها، لكن خصومه تمكنوا من إذكاء نار الفتنة بينهما فتصدى لهم بقصيدتين.

<sup>1</sup> ديوان ابن زيدون، مصدر سابق، ص36.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص نفسها.

وهذا ثاني اختبار يتعرض له ابن زيدون، لكنه هذه المرة ظهر أنفعاله سلبيا، حيث مسّ حبيبته في تلك القصيدتين وأضرّ بسمعتها، ثم زاد اندفاعه ليصورها في أشع صورة، ثم بلغ اندفاعه ذروته ليجتاز حدود المعقول، ويصل إلى حد الاعتداء عليها بالضرب<sup>1</sup>.  
غير أنه اعتذر إليها قائلا:

|                                            |                                              |
|--------------------------------------------|----------------------------------------------|
| وَإِذَا تَكُنْ نَالَتْكَ بِالضَّرْبِ يَدِي | وَأَصَابَتْكَ بِمَا لَمْ أَرِدْ              |
| فَلَقَدْ كُنْتُ لَعَمْرِي فَادِيَا         | لَكَ بِالْمَالِ وَبَعْضِ الْوَلَدِ           |
| فَقِي مَنِي بَعْدَ ثَابِتٍ                 | وَضَمِيرٍ خَالِصٍ الْمُعْتَدِ                |
| وَلَيْنَ سَاءَ لِي يَوْمٌ فَاعْلَمِي       | أَنْ سَيُئْلُوهُ سُرُورٌ بَعْدُ <sup>2</sup> |

فكأنما ابن زيدون قد مُسّ في غروره، فأحس بأن شخصيته الموقرة قد حُطّ منها، فثارت ثائرتة وانتفض ليعيد لها تلك المكانة، لكنه -كما يبدو- قد تنازل عن عرشه لولادة.

وبناء على ما سبق يمكن الوصول إلى نتيجة مفادها أنه يمكن حصر خطاب ابن زيدون في محورين كبيرين:

فأما أولاها فهو المحور المتعلق بالخطاب السياسي الذي تركز بالأساس بين حكام قرطبة وإشبيلية، سواء أكان في منصبه المقرب من كل واحد منهما أم كان من سجنه، فخطابه كان موجها للحكام في عمومه.

أما ثانيهما فهو المحور المتعلق بالجانب العاطفي، والذي توزع بين ثلاث شخصيات أو أربع إذا اعتبر شعره الموجه لأمه المتوفاة على قلته، أما الباقي من خطابه، فهو إما لابن جهور يستعطفه ليعفو عنه وإما لابن أبي جهور، وأخيرا لولادة.

<sup>1</sup> ينظر، ديوان ابن زيدون، مصدر سابق، ص 37.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص 37.

# الفصل التطبيقي:

استراتيجيات الخطاب في  
الرسالة الجديدة

## المبحث الأول: الاستراتيجية التضامنية

الاستراتيجية التضامنية ذات بعد اجتماعي، يسعى المرسل من خلالها إلى إنشاء علاقة تواصل وتآلف مع المرسل إليه والحفاظ عليها، وتدعم هذا المسعى الأمور الاجتماعية المتشابهة؛ كالدين والأصل والجنس، الموقع الجغرافي والانتماء التاريخي، وعلى ضوء ذلك تتحدد العناصر المؤثرة في اختيار الاستراتيجية التضامنية، وقد حددها ابن ظافر الشهري كالاتي: «مدى التشابه/الاختلاف الاجتماعي، مدى تكرار التواصل، مدى امتداد المعرفة الشخصية، درجة التآلف أو كيفية معرفة طرفي الخطاب لكل منهم، مدى الشعور بتطابق المزاج أو الهدف أو التفكير، الأثر الإيجابي/السلبى»<sup>1</sup>.

فهذه العناصر تعد اللبنة الأولى والأساسية في بناء العلاقات بين المتخاطبين وتمتينها، غير أن الأمر لا يثبت على حال واحدة؛ فقد لا تحضر جميع هذه العناصر، أو البعض منها؛ بمعنى آخر، قد تنحصر مهمة خطاب المرسل في التبليغ فحسب، ومن ثم وجب النظر في مقصد اللفظة المستعملة، وتصنيفها حينئذ في العلاقة التخاطبية التبليغية. لذلك فاستعمال تلك العناصر المؤثرة يضمن في تقدير مدى قيمة العلاقة التضامنية، ومدى صدقها وعمقها العاطفي<sup>2</sup>.

كتب ابن زيدون رسالته الجدية من سجنه لأبي حزم بن جهور يستعطفه ويطلب منه العفو عنه، وجاء فيها: «يَا مَوْلَايَ وَسَيِّدِي الَّذِي وَدَّادِي لَهُ، وَاعْتِمَادِي عَلَيْهِ، وَاعْتِدَادِي بِهِ، (وَأَمْتِدَادِي مِنْهُ). وَمَنْ أَبْقَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مَاضِي حَدِّ الْعَزْمِ وَآرِي زَنْدِ الْأَمَلِ، ثَابِتَ عَهْدِ النِّعْمَةِ»<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، مرجع سابق، ص 259.

<sup>2</sup> ينظر، المرجع نفسه، ص 260.

<sup>3</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص 681.

انقطعت العلاقة التي كانت تربط الأديب ابن زيدون بابن جهور بدخوله السجن، إلا أنه لم ييأس؛ فهو يحاول أن يعيدها إلى ما كانت عليه، وفي الاستراتيجية التضامنية، ومن ضمن مسوغاتها أن المرسل باختياره لهذه الاستراتيجية إنما يهدف إلى بناء علاقة مودة وصداقة مع المرسل إليه؛ أو إعادة بنائها.

ولذلك استعمل الأديب النداء أولاً، والذي يوحي لابن جهور أنه مازال قريباً من قلبه، ولكي يؤكد على ذلك أسند النداء إلى المنادى الواحد بعدة أوصاف وهي: مولاي وسيدي، وودادي له، واعتماداً عليه،.... وهذا يدل -انطلاقاً من المقاربة التداولية- على مدى حرصه على التأدب مع مولى نعمته، ورغبته في الإبقاء على علاقتهما متينة، ولا يريد أن يفارقه، ولذلك قال:

يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نُفَارِقَهُمْ وَجَدَانَا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمٌ<sup>1</sup>

جاء النداء هنا ليثمن ويؤكد على النداء السابق بأن الأمير أقرب ما يكون للقلب، فهو ليس نداء للبعيد -كما قد يفسر- وإنما هو نداء لصاحب المكانة العالية بما هو أهل له في الواقع، وبما هو يستحقه في القلب. ولذلك أتبع النداء بمن وهي للعاقل، لكن ليس هنا أي عاقل، وإنما هو العزيز على القلب الذي يصعب فراقه.

فالنداء إذن جاء هنا للتعظيم والتفخيم، وينضوي ذلك ضمن أسلوب التأدب الذي اختاره الأديب لمخاطبة صاحب السلطة السياسية، والذي ينم على دراية بطبعه، ومن ثم فهو يحاول أن يكسب الأمير ولا يخسره، ولذلك فهو يقول: «...حَسْبَمَا أَنْتَ خَلِيقٌ لَهُ، وَأَنَا مِنْكَ حَرِيٌّ بِهِ، فَذَلِكَ بِيَدِكَ وَهَيْنٌ عَلَيْكَ»<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص711.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص715.

يعد استعمال الضمير (أنا) و(أنت) في هذا النموذج من قبل الأديب ضرباً من الذكاء والفتنة؛ وقد أسبق الضمير أنت والتي تعرف تداولياً بأنت التعاونية، ليدلل على استعدادك للتعاون مع سيده وأنه متقبل لكل النتائج. فالضمير أنت يعبر عن علاقة مودة مشتركة، وتقارب اجتماعي، وتكرار في التواصل.

أما الضمير أنا، فهو في العادة يستعمل في الحالة التي تنعدم فيها العلاقة، غير أنه في هذا المقال استخدم على نحو يوحي بأن ابن زيدون بدون صاحبه لا حول له ولا قوة، وأنه يبقى رهن إشارة أميره.

وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَى أُمِيرِي زَادَنِي ضَنْأً بِهِ نَظَرِي إِلَى الْأَمْرَاءِ<sup>1</sup>

تشير الإشارية "أميري" إلى فرق الهوية الاجتماعية؛ فقد وضع ابن زيدون لنفسه مكانة دون الأمير، وهذا ليس من محض الصدفة؛ وإنما هو من باب الاحترام والتعظيم وإنزال الناس منازلهم، ولا يريد لتلك العلاقة التي أكسبته الكثير أن تنقطع، ولا يمنح للوشاة وللحساد بذلك فرصة للنيل منه مرتين؛ مرة بإدخاله السجن، ومرة باتخاذة مطية للسخرية في المجالس.

### المطلب الأول: مسوغات الاستراتيجية التضامنية

ينحصر دور الاستراتيجية التضامنية ذات المعيار الاجتماعي في التأسيس للعلاقات الاجتماعية بين الأفراد، أو تقويتها وتمتينها، أو إعادتها إلى سابق عهدها إن أصابها شيء من الاضطراب. تماماً كما حدث لابن زيدون مع الأمير ابن جهور؛ حيث سارع بعد دخوله السجن إلى إعادة بناء تلك العلاقة التي كانت تربطه بالأمير من خلال رسالته الجديدة.

<sup>1</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص710.



فهي تسعى إذن إلى ربط الأفراد من خلال علاقات ود واحترام بينهم عبر أسلوب التأدب والتخلق، وذلك ما يسميه الشهري «تأسيس الصداقة بين طرفي الخطاب، أو إعادتها بين طرفين فرق بينهما الزمن فابتعدا كثيرا عن بعضهما البعض»<sup>1</sup>.

وهذا تماما ما حاول ابن زيدون أن يقوم به من خلال كتابته للرسالة الجدية من سجنه؛ حيث وظّف فيها كل ما له علاقة بحسن التأدب؛ من تعظيم وتفخيم للأمير، وإثبات علو قدره؛ إذ يصفه بأنه مولاه وسيّده<sup>2</sup>.

ولأن صاحب السلطة السياسية بيده الامر والنهي، وذلك بحسب ما يقتضيه قانون الحكم الذي يشرّعه، فحري على من دونه أن يحسنوا التعامل معه، لذلك من مسوغات الاستراتيجية التضامنية التركيز على حسن التعامل مع الآخر من أجل الوصول إلى تلك الديمومة في العلاقة بينه وبين المأمور<sup>3</sup>.

وقد تجسدت هذه الفكرة في رسالة الأديب؛ من أولها إلى آخرها، ومن خلال الاستخدامات اللغوية التي وظفها، والتي اتخذت مسارا يحافظ فيه على تلك الرابطة التي كانت تربطهما «وَسَيِّدِي الَّذِي وَدَّادِي لَهُ، وَاعْتِمَادِي عَلَيْهِ، وَاعْتِدَادِي بِهِ»<sup>4</sup>.

وإذا كان ابن زيدون لا يريد لهذه العلاقة أن تنقطع، ولا ييأس من أجل بلوغ ذلك، فإن ذلك يتطلب ثمنا، وثمانه أن يثبت لابن جهور أنه يستحق العفو والصفح، ومن ثم الخروج من

<sup>1</sup> استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، مرجع سابق، ص 261.

<sup>2</sup> ينظر، المرجع نفسه، ص 681.

<sup>3</sup> ينظر، المرجع نفسه، ص 261.

<sup>4</sup> ينظر، المرجع نفسه، ص 681.

السجن، ولأجل أن يحسن من صورته كمرسل -وذلك من مقتضيات ومسوغات الاستراتيجية التضامنية- تراه بدأً يتنازل عن غروره وتعالى شخصيته من خلال قوله:

يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نُفَارِقَهُمْ وَجَدَانًا كُلُّ شَيْءٍ بَعْدَ كَرِّ عَدَمٍ<sup>1</sup>

ولأنه يدرك عدم جدوى ذلك التعالي والغرور، فقد أثر سلوك سبيل الحوار والمجارة والتأدب مع الأمير، لأن هذا ما يناسب المرحلة التي يمر بها، ومن أجل الاستمرار في تحقيق أهدافه المستقبلية التي كان يحلم بها من قبل كوزير أو سفير أو حتى حاكم لقرطبة، فلا يمكن التلاعب بذلك في مثل هكذا ظروف، ومن ثم لابد من كسب قرب الأمير وودّه والحذر كل الحذر من غضبه<sup>2</sup>، وهذا تماماً ما جعله يحافظ على رتم الخطاب في رسالته.

### المطلب الثاني: الأدوات والآليات اللغوية للاستراتيجية التضامنية

تتمظهر هذه الأدوات في عمومها في شكل إشارات؛ عبارة عن صفات وألقاب وضمائر، وصيغ مختلفة؛ كالتبجيل والتفخيم والتعظيم.

#### أولاً: التفخيم والتعظيم

يقول ابن زيدون: «يَا مَوْلَايَ وَسَيِّدِي الَّذِي وِدَادِي لَهُ، وَاعْتِمَادِي عَلَيْهِ، وَاعْتِدَادِي بِهِ، (وَامْتِدَادِي مِنْهُ). وَمَنْ أَبْقَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مَاضِي حَدِّ الْعَزْمِ وَآرِي زَنْدِ الْأَمَلِ، ثَابِتَ عَهْدِ النِّعْمَةِ»<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص 711.

<sup>2</sup> ينظر، استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، مرجع سابق، ص 262.

<sup>3</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص 681.

انقطعت العلاقة بين الشاعر والأمير بعد أن أدخله السجن، فهو يحاول أن يعيدها إلى سابق عهدها، فبدأ خطابه بنداء ينم عن إظهار العظمة لصاحبه، وقد أكد ذلك بأن أتبعه بعبارات التفخيم والتعظيم: "مولاي"، "سيدي"، "ودادي له"، "اعتمادي عليه"،....

### ثانيا: في الضمائر

قوله: «...حَسْبَمَا أَنْتَ خَلِيقٌ لَهُ، وَأَنَا مِنْكَ حَرِيٌّ بِهِ، فَذَلِكَ يَدِيكَ وَهِنَّ عَلَيْكَ»<sup>1</sup>.

يعد استعمال هذين الضميرين دليل على انتقاء الاستراتيجية التضامنية، فالضمير (أنت) يعرف تداوليا بـ (أنت) التعاونية، لأنها تعبر عن علاقة مودة مشتركة وتقارب اجتماعي وتكرار التواصل. أما الضمير (أنا) ففي العادة يستعمل في حالة عدم وجود علاقة، غير أنه في هذا المثال استخدم في إعادة بنائها، فابن زيدون يريد القول: إن الله يسرك لهذا الأمر، وما علي إلا الطاعة.

### ثالثا: في النداء

قوله: يَا مَنْ يَعْزُّ عَلَيْنَا أَنْ نُفَارِقَهُمْ وَجَدَانَا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَكَ عَدَمٌ<sup>2</sup>

جاء النداء في هذا المثال للاستدلال على غرضين: فأما الأول فهو حفظ المكانة العالية للأمير، فهو ليس نداء للبعيد بقدر ما هو نداء للتعظيم، وأما الغرض الثاني فهو للقريب، ويقصد القريب من القلب، ولذلك قال: « يَا مَنْ يَعْزُّ عَلَيْنَا أَنْ نُفَارِقَهُمْ »، وكل ذلك يجتمع تحت عنوان واحد: إعادة العلاقة المفقودة.

<sup>1</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص715.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص711.

## رابعاً: في إشارية الهوية

قوله: وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَى أَمِيرِي زَادَنِي ضَنًّا بِهِ نَظَرِي إِلَى الْأَمْرَاءِ<sup>1</sup>

تشير الإشارية "أميري" إلى فرق الهوية الاجتماعية، فقد وضع ابن زيدون لنفسه مكانة دون ابن جهور؛ صار هناك منزلتان؛ هناك أمر ومأمور، وذلك حتى يبقى ذلك الاحترام والتعظيم قائماً، ويحفظ العلاقة من الانقطاع نهائياً.

فابن زيدون -ولو متظاهراً فقط- لا يريد أن يعيش ذلاً بعد فخامة كانت له في بساط الأمير، لأنه يعلم جيداً أن الذين وشوا به عند الأمير، وكانوا سبباً في دخوله السجن، سينهالون عليه شماتة وهو الذي كان عزيز النفس، كريم الأصل، كامل النعمة.

فبالنظر إلى المسوغات التي تدفع بمنتج الخطاب إلى اختيار الاستراتيجية التضامنية، فإنه يلاحظ من خلال النماذج المتعددة التي سيقى لتطبيق الاستراتيجية عليها أن هذه المسوغات تتباين من حيث:

وجود العلاقة بين طرفي الخطاب أو انعدامها.

التركيز على حسن التعامل مع صاحب السلطة، والتأدب معه.

ودون اللجوء إلى ذكر وشرح باقي المسوغات الأخرى، لأنها تتوزع في مجملها حول مواضيع لم تتوفر في الأمثلة المختارة. وعليه يمكن استنتاج ما يلي:

أن ابن زيدون استطاع أن يحافظ على رابطة جأشه.

<sup>1</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص 710.

استطاع ابن زيدون أن يتعامل مع الأزمة التي ألمت به بكل ذكاء.

أنه لم ينسق وراء شخصيته المتعالية، وآثر التنازل لأجل منفعته. وذلك في قوله: «هَذَا الْعَبُّ مُحَمَّدٌ عَوَاقِبُهُ، وَهَذِهِ النَّبُوءَةُ غَمْرَةٌ ثُمَّ تَجَلَّى، وَهَذِهِ النَّكْبَةُ سَحَابَةٌ صَيْفٍ عَنْ قَلِيلٍ تَقْشَعُ»<sup>1</sup>.

كما يمكن -تبعاً لخطابه- الوصول إلى أنه استعمل إشارات لغوية مطمئنة لابن جهور، بأنه مازال على عهد صداقته بالرغم مما أصابه ، وأن ما أصابه من نفسه مثل قوله: «هَلْ أَنَا إِلَّا يَدٌ أَدْمَاهَا سَوَارُهَا...»<sup>2</sup>.

ولأجل التضامن مع ابن جهور يعترف ابن زيدون ويوافق على ما قرره ابن جهور كي ينال رضاه.

إذا كانت تلك نتائج تعلقت بشخص ابن زيدون على وجه الخصوص، فما هي النتائج التي يمكن الحصول عليها، والتي تتعلق بخطابه من خلال النماذج المقترحة، أو من غيرها؟

البدء بحرف النداء "يا" ليس اعتباطاً؛ فالشاعر يريد أن يقول لابن جهور أنك مازلت قريباً مني رغم رميك لي في السجن، وحرف الياء -كما هو معلوم- يستعمل لنداء القريب، وقرب ابن جهور هو القرب من القلب.

<sup>1</sup> تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، الصفدي خليل بن أبيك، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، (دط)، (دت)، 1969م، ص22.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص نفسها.

قوله: "مولاي وسيدي الذي ودادي له" يقول الصفدي في شرحه لهذه العبارة: «المولى يجيئ في الكلام على معان، (فالمولى ابن العم)، والمولى الحليف، والمولى المعتقد، والمولى العتيق»<sup>1</sup>. ومن ثم فالخطاب أو النداء "يا مولاي" كان شاملا ينم على سعة اطلاع صاحبه.

تخصيص النداء والمحبة لشخص بعينه يدل على مدى أهميته عنده؛ وهذا ما تسعى إليه الاستراتيجية التضامنية؛ وهي إعادة العلاقة المفقودة وتوثيقها من خلال حسن الأدب والمعاملة مع الآخر.

بدأ الخطاب بالنداء بالأعم، ثم الأخص وهو وداده، «فالمولى أعم من السيد، لأن المولى يطلق على معان كما تقدم،.... والحبيب لا يكون إلا واحداً»<sup>2</sup>.

ومما سبق، يستشف أن ابن زيدون كان يعي جيدا أنه لو كان عنيدا متباهيا متمسكا بغروره، لن يستطيع أن يسمع صوته، إلا أنه يدرك أن ذكائه ولسانه الثاقب ذي السحر والفصاحة كفيل أن تقضى له حوائجه، وهذا ما حدث فيما بعد مع الوليد بن أبي جهور.

## المبحث الثاني: الاستراتيجية التوجيهية

قبل الشروع في كتابة المثال المقترح للتطبيق، لا بأس بالتعريج على بعض خصائص هذه الاستراتيجية؛ كالعناصر التي تتحكم في اختيارها والسياق المناسب لها، «فهناك سياقات لا تناسبها الخطابات المرنة التي تمنح الأولوية لمبدأ التهذيب وعوامل التملق»<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، مرجع سابق، ص30

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص32.

<sup>3</sup> استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، مرجع سابق، ص222.

ذلك كون التوجيه عادة ما يكون مصحوباً بأوامر ونواه وتبليغ تعليمات مكتوبة ليصل القصد واضحاً سريعاً، ولا حاجة للمرسل للتكرار. كما أن فضاءه -أي التوجيه- ضيق عندما ينحصر داخل المؤسسات، ويكون محكوماً بضوابط قانونية لا تقبل التأخير أو التأجيل. عكس التأدب، فإن فضاءه شاسع ومتنوع، «كل هذه الخصائص وغيرها، هي ما ييسر مهمة المرسل في إنتاج خطابه التوجيهي مسبقاً.... وهذا ما يعطي الخطاب صبغته العامة، ويمنحه صفة الديمومة، ومناسبته لكل وقت»<sup>1</sup>.

بمعنى آخر، فعندما يسدي المسؤول تعليمة للموظفين، وتعلق على مدخل المؤسسة، فإنه من المفترض أن يكون كل الموظفين قد اطلعوا عليها، وعليه فإن هذا الخطاب التوجيهي قد اكتسب صفة الديمومة والمناسبة لكل الأوقات، وشمل صنفى المرسل إليه: الحاضر والغائب مؤقتاً.

أما عن عناصر هذه الاستراتيجية، والمتحكمة في اختيارها، فتتجلى في عنصرين أساسيين هما: سلطة المرسل، والمنفعة التي يجنيها المرسل من إنجازه لأفعال التوجيه، أو التي يستفيد منها المرسل إليه، أو كليهما معاً.

وبالعودة إلى سلطة المرسل، فإنها تتباين بحسب السياقات التي وجد فيها صاحبها، فمرة هي سلطة قانونية، وثانية هي سلطة شرعية، وثالثة هي سلطة لغة وعلم ومعرفة، وهلم جراً، وللغة سلطتها القائمة بذاتها من خلال وظائفها المختلفة، «وجعل "هاليداي" للغة ثلاث وظائف كبرى هي: التصورية والتعاملية والنصية»<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، مرجع سابق، ص323.

<sup>2</sup> الوظيفية عند هاليداي: دراسة تحليلية، تمام حمد المنيزل، المجلة الدولية للدراسات اللغوية والأدبية العربية، العدد1، المجلد2، 2020م، ص27.

وقد تفرعت عن هذه الوظائف الكبرى حزمة من الوظائف الفرعية، وذلك على ضوء استعمالاتها في مختلف السياقات، ومنها الوظيفة النفعية والوظيفة التنظيمية والوظيفة التفاعلية<sup>1</sup>. وهذا ما يهم البحث في قادم مراحلها، لما يكون الشخص منعدم السلطة التي تخول له الأمر والنهي، لكنه يمتلك اللغة والعلم والمعرفة، فكيف سيوظفها ويجعلها سلطة في يده؟

فالتحكم في اللغة بحسب جاكبسون (Jakobson) يعود للمرسل في كيفية استخدامها، وتخير اللغة المناسبة للزمن والسياق المناسب لها، وأعطى لعناصر الاتصال (المرسل، الرسالة، المرجع، القناة، السنن، المرسل إليه) وظائف كالتعبيرية والندائية أو الإيعازية....<sup>2</sup>

ومن ثم يمكن أن تكون للغة أداءات تداولية تسمح للمرسل أن يعبر بها عن قصده، واستخدامها في تحقيق مآربه ومنافعه، لأن اللغة لها وظيفة اجتماعية، بالإضافة إلى وظائف أخرى؛ حيث يستطيع الفرد بواسطتها أن يؤسس علاقات مع أفراد آخرين ومن مستويات مختلفة «تمثل وظيفة اللغة موضوعا يثير دائما نقاشات جادة، فالبعض يعتقد أن اللغة أولا وقبل كل شيء وظيفة اجتماعية، ففي رأيهم تستعمل اللغة لدعم العلاقات داخل المجموعات البشرية»<sup>3</sup>.

فإذا كان من المسلم به أن صاحب السلطة المادية هو صاحب الأمر والنهي، فبحكم مرتبته داخل مؤسسته التربوية أو التعليمية أو التوجيهية، فإنه يستخدم التبليغ الذي يحتوي على أوامر ونواه قصد توجيه حركة العمل داخل المؤسسة. غير أنه عندما يحوز المرسل

<sup>1</sup> ينظر، الوظيفية عند هاليداي: دراسة تحليلية، ص28.

<sup>2</sup> ينظر، وظائف اللغة في ضوء نظريات الاستعمال: وظيفتنا الإنجاز والحجاج أنموذجا، عمر بوقمرة، جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف، الجزائر

<sup>3</sup> التداولية اليوم علم جديد في التواصل، آن روبول وجاك بوشلار، ترجمة: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، مراجعة: لطيف زيتوني، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، لبنان، 2003م، ص14.



على سلطة معنوية كسلطة اللغة كابن زيدون، فإن الأمر مختلف، فمهما يكن له من نبوغ في أدبه وفصاحته ونباهته، فلا يمكن له أن يستخدم أو يبلغ أمره ونهيه بالطريقة المعتادة.

ذلك لأنه ليس في موقع السلطة المادية، وإنما يستطيع أن يبلغ أمره ونهيه مضمين في صيغة دعاء أو طلب أو توسل: «.....هَاكَهَا -أَعَزَّكَ اللهُ- يَبْسُطُهَا الْأَمَلُ، وَيَقْبِضُهَا الْخَجَلُ، لَهَا ذَنْبُ التَّقْصِيرِ وَحُرْمَةُ الْإِخْلَاصِ، فَهَبْ ذَنْبًا لِحُرْمَةٍ، وَاشْفَعْ نِعْمَةً نِّعْمَةً»<sup>1</sup>.

وتماشيا مع السياق المشتمل على ظروف غير عادية وضع فيها الأديب، فقد سخر سلطته اللغوية لذلك، فقد استخدم الأمر كغرض مرتبط بالسلطة في صيغة التوسل من خلال مفردات فيها استعطاف ورحمة، تماما كمن يطلب من الله طلبا، فإنه يغلفه بالتضرع والمسكنة، وإلا كان ذلك الطلب فيه جراءة.

غير أن صاحب اللغة والعارف بخباياها وأسرارها، يمكن أن تكون له سلاحا بين يديه، ينجيه من الكرب التي قد تحل به، فعندما يقول ابن زيدون: «.....فَمَا هَذِهِ الْبَرَاءَةُ مِمَّنْ يَتَوَلَّأَكَ؟ وَالْمِيلُ عَمَّنْ يَمِيلُ إِلَيْكَ؟ وَهَلَّا كَانَ هَوَاكَ فِيمَنْ هَوَاهُ فَيْكَ !! وَرِضَاكَ لِمَنْ رِضَاهُ لَكَ»<sup>2</sup>.

ففي هذا المقام استطاع الأديب أن يوظف التوجيه بشكل مزدوج؛ فقد استخدم الاستفهام ممزوجا بالاستعطاف والتوسل للأمير لينظر في حاله وشأنه؛ فقلوه بالطريقة العادية: لماذا تتبرأ مني أيها الأمير؟ فهذا الاستفهام فيه غلظة في الطرح وهو -حتما- غير قابل للجواب لدى الأمير، أما عندما يمنح الاستفهام صبغة الضعف والمسكنة، فإن في ذلك إصابة سويداء قلب الأمير ليحنو عليه.

<sup>1</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص717.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص711.

كما وظف الأديب الإغراء في ثوب التحضيض، ويفهم منه نوع من المداراة للأمير، مذكرا إياه بما يكنّ له من حب وود واحترام، وكل ذلك يدخل في هدف توجيه عواطف وطيبة الأمير نحوه، وقوله أيضا: «....وأعود وأقول: [مَا هَذَا الذَّنْبُ الَّذِي لَمْ يَسَعَهُ عَفْوُكَ؟ وَالْجَهْلُ الَّذِي لَمْ يَأْتِ مِنْ وَرَائِهِ حِلْمُكَ؟ وَالتَّطَاوُلُ الَّذِي لَمْ يَسْتَغْرِقْهُ تَطَوُّلُكَ؟ وَالتَّحَامُلُ الَّذِي لَمْ يَفِ بِهِ احْتِمَالُكَ؟ وَلَا أَخْلُو مِنْ أَنَّ أَكُونَ بَرِيئًا فَأَيْنَ الْعَدْلُ؟ أَوْ مُسِيئًا فَأَيْنَ الْفَضْلُ؟]»<sup>1</sup>.

استعمل ابن زيدون سلسلة من الاستفهامات، وكأنني به يدقّ بابا دقات متتالية كالمستغيث فلا يفتح، والمعروف أن الاستفهام بهذا الشكل، إنما يقصد به صاحبه توجيه المستفهم منه -إلزاما- بأن يجيب على استفهامه، ومن ثم الوصول إلى غايته.

### المطلب الأول: مسوغات الاستراتيجية التوجيهية

يمكن القول -على العموم- بأن الدافع وراء انتقاء الاستراتيجية التوجيهية دون سواها هو الاختلاف بين المرسل والمرسل إليه، من حيث المرتبة الاجتماعية، أو التفوق الثقافي، أو حب التعالي من قبل المرسل، فيحدث هناك اضطراب في العلاقات بينهما، وهذا لا يعني أن ابن زيدون -كونه مرسلا- قد ساهم في هذا التنافر بينه وبين الأمير، فهذا سياق قد فرض عليه، ومن نتائجه هذا الاضطراب في العلاقة.

لقد أدّت التصرفات المشينة -إن صح القول- التي قام بها حسّاد الأديب ضده إلى تغيير مزاج الأمير نحوه، مما دفع به إلى اتخاذ قرار -قد يكون متسرعا- ضد أعزّ أصدقائه ومعاونيه، وكان هذا سببا ومسوّغا كافيا لابن زيدون ليوجه الأمير الوجهة المناسبة بقوله: «وَهَلَّا كَانَ هَوَاكَ فِيمَنْ كَانَ هَوَاهُ فَيْكَ»<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص 687.

<sup>2</sup> المصدر نفسه ، ص 711.

فمكوث ابن زيدون في السجن جعل منه منعزلاً عن العالم الخارجي وأخباره، وعن صديقه الذي لم يطق فراقه، ولذلك فانقطاع الاتصال بينهما كان سبباً آخر في استخدام التوجيه كوسيلة إلى لفت نظر الأمير نحوه بقوله: «.....وَلَنْ يُرِيَنِي مِنْ سَيِّدِي إِنْ أَبْطَأَ سَحَابُهُ، أَوْ تَأَخَّرَ غَيْرَ ضَنِينٍ غَنَاؤُهُ\*»<sup>1</sup>.

لذلك فهذا التهميش الذي تعرض له ابن زيدون من قبل ابن جهور، أثر على عاطفته سلباً، وهز كيانه النفسي، فجعله يثور ليرى ذاته من هذه التهم الموجهة إليه من خلال رسالته الجدية التي أورد فيها، بل وصف فيها حالته تلك، وذلك مسوِّغ قوي لأن يلجأ الأديب إلى توجيه الأمير ويغيّر قراره، ومن ذلك قوله:

كُلُّ الْمَصَائِبِ قَدْ تَمَّرَ عَلَى الْفَتَى وَتَهَوَّنُ، غَيْرَ شَمَاتَةِ الْحُسَّادِ<sup>2</sup>

فابن زيدون لم يحتمل ذلك الضغط النفسي جرّاء الإهانة التي تلقاها بسجنه أولاً، ثم شماتة أعدائه فيه ثانياً، ورغم ذلك بدا حريصاً على الثبات ورباطة الجأش، ساعياً إلى تصحيح العلاقة المضطربة بينه وبين سيّده، ويعد «تصحيح العلاقة بين طرفي الخطاب غير المتكافئين في المرتبة»<sup>3</sup> أمراً لا مفر منه بالنسبة لابن زيدون، كونه الاختيار الأفضل في هذا المقام العصيب، لأن صاحبه بيده الأمر كله، ولذلك تراه -من خلال رسالته- مصرّاً على تغيير موقف الأمير منه مهما كلفه ذلك، ولو كلفه ذلك التنازل كقوله:

\* ضَنِين: بخيل، غناؤه: نفعه.

<sup>1</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص 685.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص 682.

<sup>3</sup> استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، مرجع سابق، ص 328.

إِلَّا يَكُنْ ذَنْبٌ فَعَدْلُكَ وَاسِعٌ أَوْ كَانَ لِي ذَنْبٌ فَفَضْلُكَ أَوْسَعُ<sup>1</sup>

فالسباق الذي وضع فيه ابن زيدون حرّك تفكيره وعواطفه وكيانه كله لأن يتفاعل معه بما يناسبه، لأنه من غير المعقول بأن يسجن ظلماً بحسب رأيه- ويبقى مكتوف الأيدي، معطل العقل، منكسر القلب، ضعيف الإرادة، فالتفاعل مع الحدث إذن كان مسوّغاً مؤثراً فيه، ألهمه بأن يقوم مدافعاً عن براءته.

## المطلب الثاني: الوسائل اللغوية للاستراتيجية التوجيهية

تستخدم الاستراتيجية التوجيهية وسائل لغوية تحقق من استعمالها الهدف المقصود، وإن كانت تتباين أحيانا في استخدامها التداولي مع استعمالها اللغوي التقليدي، ومنها على وجه الخصوص: الأمر وأدواته المختلفة، النهي والاستفهام والتحذير، ذكر العواقب والتوجيه المركب وألفاظ المعجم<sup>2</sup>.

### أولاً: الأمر

ورد في المثال الأول أفعال تدل على الأمر ومنها:

هَاكِهَآ....فَهَبْ ذَنْبًا لِحُرْمَةٍ....وَاشْفَعْ نِعْمَةً نِّعْمَةً.

فابن زيدون في هذا المقام أو السياق الذي هو فيه، ليس له الحق في أمر من هو أعلى منه رتبة، وليس له أن يوجّه الأمير بصفته سجيناً، غير أنه يمتلك سلطة ليس بمفهومها

<sup>1</sup> تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، خليل بن أبيك الصفدي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، (دط)، (دت)، 1969م، ص23.

<sup>2</sup> ينظر، استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، مرجع سابق، ص340.

التقليدي؛ إذ تشمل هذه الاستراتيجية سلطة العلم والمعرفة، وذلك ما مكن الشاعر من أن يقوم بالأمر على طريقته<sup>1</sup>.

والتوجيه -كما هو معلوم- يراد من ورائه منفعة ذاتية للمرسل، أو للمرسل إليه أو لكليهما معاً، وللتوجيه وجوه منها: الندب والتأدب والإرشاد والنصح، وكلها تستخدم لأجل جلب تلك المنفعة، سواء أكانت دنيوية أم أخروية، أم لكليهما<sup>2</sup>. فعندما يقول ابن زيدون: «فَهَبْ ذَنْباً لِحُرْمَةٍ، وَاشْفَعْ نِعْمَةً بِنِعْمَةٍ» يتبعها مباشرة بالجزاء المفترض أن يكون قائلاً: «لِيَتَأْتِيَ لَكَ الْإِحْسَانُ مِنْ جِهَاتِهِ، وَتَسْلُكَ إِلَى الْفَضْلِ طُرُقَاتِهِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى»<sup>3</sup>.

ومن أدوات التوجيه التي تتضمنها الاستراتيجية التوجيهية الاستفهام، وورد مرافقاً للتحضيض؛ وهو الآخر من أدوات التوجيه، إذ يقول ابن زيدون في المثال الثاني: «....فَمَا هَذِهِ الْبَرَاءَةُ مِمَّنْ يَتَوَلَّاهُ؟ وَالْمِيلُ عَمَّنْ يَمِيلُ إِلَيْكَ؟».

## ثانياً: الاستفهام

الأسئلة الاستفهامية عند طرحها ليس لسامعها أو الموجهة إليه من خيار سوى الإجابة عنها، ومن ثم استخدمها ابن زيدون في كذا موضع، وبصفة متوالية، ليوجه ابن جهور إلى الإجابة عليها حتماً، وينال بذلك منفعة شخصية، غير أنه أتبع الاستفهام بالإغراء، ومن فروعه التحضيض قائلاً: «....وَهَلَّا كَانَ هَوَاكَ فِيمَنْ هَوَاهُ فَيْكَ!! وَرِضَاكَ لِمَنْ رِضَاهُ إِلَيْكَ!!»<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> ينظر، استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، مرجع سابق، ص 342.

<sup>2</sup> ينظر، المرجع نفسه، ص 343.

<sup>3</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص 717.

<sup>4</sup> المصدر نفسه، ص 711.

لم يدع ابن زيدون مهلة للتردد عند ابن جهور، فاتبع الاستفهام بالتحضيض، حتى لا يميل تفكيره لشيء آخر سوى إطلاق سراحه، بل إنه حثه أن يبادلّه ودّه الذي يكنّه له.

إلا أن ابن زيدون في المثال الثالث غير -نوعاً ما- من أسلوبه الاستفهامي؛ حيث يقلل من شأن ذنبه من خلال مقارنته بعظم حلم الأمير وصفحه قائلاً: «مَا هَذَا الذَّنْبُ الَّذِي لَمْ يَسَعُهُ عَفْوُكَ؟ وَالْجَهْلُ الَّذِي لَمْ يَأْتِ مِنْ وَرَائِهِ حِلْمُكَ؟.... وَلَا أَخْلُو مِنْ أَنْ أَكُونَ بَرِيئاً فَأَيُّ الْعَدْلِ؟ أَوْ مُسِيئاً فَأَيُّ الْفَضْلِ؟»<sup>1</sup>.

من خلال هذه الاستفهامات المتتالية، وضع ابن زيدون ابن جهور أمام الأمر الواقع؛ إما تهمة مثبتة بالدلائل؛ وإما إخلاء سبيل، أو تهمة على أدلة قطعية تستحق العقاب، وفضلك أعم وأشمل. ويتبع ابن زيدون سلسلة الاستفهامات بهذا البيت:

إِلَّا يَكُنْ ذَنْبٌ فَعَدْلُكَ وَاسِعٌ أَوْ كَانَ لِي ذَنْبٌ فَفَضْلُكَ أَوْسَعُ<sup>2</sup>

ومن خلال هذا البيت يكون ابن زيدون قد أنهى أسئلته المغلقة التي تدعو إلى التفكير وإعادة النظر، فإنه يمكن الخروج بنتائج من خلال تطبيق استراتيجية التوجيه على نصوص الرسالة -ثلاثة نماذج- كما يأتي:

انطلاقاً دائماً من المبررات أو المسوّغات التي تستدعي استعمال استراتيجية التوجيه، يمكن أن نتبين النتائج التالية:

لم يستخدم ابن زيدون الأمر وأدواته المختلفة بصيغته التقليدية، لأنه لا يمتلك سلطة تسمح له بذلك من جهة، ولأنه راعى الظرف الذي يمر به، والسياق من جهة ثانية.

<sup>1</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص 687.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص نفسها

وظف الشاعر الأمر لكن بنكهة أخرى؛ حيث جاء الأمر وكأنه التماس من خلال قوله: «...فَهَبْ ذَنْبًا لِحُرْمَةٍ، وَاشْفَعْ نِعْمَةً بِنِعْمَةٍ»، ثم أتبعه بالجزء الذي سيلقيه إن نفذ له أمره أو التماسه بقوله: «لِيَتَأْتِيَ لَكَ الْإِحْسَانُ مِنْ جِهَاتِهِ، وَتَسْلُكَ إِلَى الْفَضْلِ طُرُقَاتِهِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى»، وقد جاء ذلك في ثوب النصيح أيضا، كونه أتبع التماسه بعلّة، وهي الجزاء والفضل والإحسان في الدنيا والآخرة، وهي من ذكر العواقب.

لم يستعمل الشاعر التحذير الذي هو من صميم أدوات التوجيه، كونه غير مناسب في مثل حالته، ولأنه كان ذكيا فطنا، فقد لجأ إلى الاستفهام، وأكثر منه لأنه يجيد التلاعب باللغة.

والاستفهام من آليات التوجيه يمتاز بخصوصية، وهي أن المرسل يحصر المرسل إليه في الزاوية -إن صح التعبير- فلا يدع له فرصة للتهرب، إلا أن يجيب عن أسئلة المرسل، «ومن ثم، فإن المرسل يستعملها للسيطرة على مجريات الأحداث، بل وللسيطرة على ذهن المرسل إليه، وتسيير الخطاب تجاه ما يريده المرسل»<sup>1</sup>.

فالعلّة إذن من استخدام الشاعر للاستفهام بذلك الكم يوحي بأنه مصرّ على كسب المعركة باللغة وليس بشيء آخر، لأنه السلاح الوحيد الحاد الذي يملكه، لذلك تراه يكثر من التساؤل حتى يدع ابن جهور يعيد التفكير في ذنبه؛ وكأنه ينبهه إلى (ظلمه)، وفي الوقت ذاته يقلل من ذنبه الذي اقترفه. بمعنى آخر، يريد القول أن ذنبه هذا الذي ارتكبه لا يستحق كل هذا الذي سلّطته علي من العقوبة بالسجن.

<sup>1</sup> استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، مرجع سابق، ص352.

لم يكتف ابن زيدون بالاستفهام، وإنما وظف إلى جانبه التحضيض الذي هو فرع من الإغراء ضمن أدوات استراتيجية التوجيه، وذلك ليدعم مسعاه بقوله: «وَهَلَّا كَانَ هَوَاكَ فِيمَنْ هَوَاهُ فَيْكَ!! وَرِضَاكَ لِمَنْ رِضَاهُ إِلَيْكَ!!»<sup>1</sup>. لقد تعدّى ابن زيدون الحث البسيط، وإنما -لمن يتمعن القول- أنه يطلب منه أن يقابله بالهوى الذي يهواه به، ومن حقه أن يردّ عليه برضاه، كما يحاول هو ألا يرضي أحدا سواه.

لم يوظف الشاعر النهي أيضا، لأن المقام لا يسمح له بذلك، واستطاع أيضا أن يوصل ما أراده بفضل اللغة التي كانت سلطة في يده، بالإضافة إلى علمه الواسع ومعرفته المتنوعة.

من الأدوات التي وظفها الشاعر في رسالته، ذكر عواقب الأمور، وفي ذلك توجيه منه لابن جهور وأن يعدل عما فعله، وألا يسلبه حريته فقال: «.....وَعَضَضْتَ عَنِّي طَرْفَ حِمَايِكَ -بَعْدَ أَنْ نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى تَأْمِيلِي لَكَ، وَسَمِعَ الْأَصَمُّ ثَنَائِي عَلَيْكَ، وَأَحَسَّ الْجَمَادُ بِاسْتِنَادِي إِلَيْكَ -فَلَا غَرَقَ قَدْ يَغْصُ بِالْمَاءِ شَارِبُهُ، وَيَقْتُلُ الدَّوَاءُ الْمُسْتَشْفِي بِهِ، وَيُؤْتِي الْحِذْرُ مِنْ مَأْمَنِهِ»<sup>2</sup>.

يريد الشاعر من خلال التركيز على ذكر العواقب أن يوجه المرسل إليه إلى أن قيمته ومكانته الاجتماعية ستصبح في الحضيض، ولذلك فقد أردف كلامه هذا ببيت من الشعر، كأنه يترجاه بأن لا يجعله مطية لأعدائه وحساده فقال:

كُلُّ الْمَصَائِبِ قَدْ تَمَرَّ عَلَى الْفَتَى وَتَهُونُ، غَيْرَ شَمَاتَةِ الْحُسَادِ<sup>3</sup>

<sup>1</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص711.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص682.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص نفسها.



من النتائج التي يمكن استخلاصها أيضا، أن ابن زيدون تحصّن كثيرا بالحكمة ورجاحة العقل، وكان مستعدا للتنازل لأجل ألا يحط ابن جهور من قدره بين حساده، وذلك -تماما- ما يفسر شخصيته المتعالية.

أن الشاعر حاول توجيه الأمير الوجهة التي يريد بها هو، وذلك بالاعتماد على ما أوتي من العلم والمعرفة.

### المبحث الثالث: الاستراتيجية التلميحية

الاستراتيجية التلميحية ذات بعد لغوي محض؛ فهي تعتمد أساسا على ما تؤديه الأفعال اللغوية والعبارات من مهام في إيصال قصد المخاطب، سواء أكان ذلك بالتعبير المباشر أم بالتعبير غير المباشر، وهذا الأخير هو الغاية التي تسعى إليها هذه الاستراتيجية، لأن هناك سياقات لا يتناسب معها المباشرة في التعبير، «فيلمح بالقصد عبر مفهوم الخطاب المناسب للسياق»<sup>1</sup>.

يحدث ذلك عادة في مواطن التبجيل والتفخيم، كما عند التكسب، فيلجأ الشاعر إلى المبالغة في الكنايات كثيرا لينال رضى الممدوح، وقد يستعير لذلك -أيضا- صفات كالشجاعة والإقدام من أجل الوصول إلى مراده، كقول البحتري في مدح بعض الولاة:

إِنَّ الْأَمِيرَ أَطَالَ اللَّهُ مَدَّتَهُ!      يُعْطِي مِنَ الْعُرْفِ مَا لَمْ يُعْطِهِ أَحَدٌ  
يَنْسَى الَّذِي كَانَ مِنْ مَعْرُوفِهِ أَبَدًا      مِنْ الْعِبَادِ، وَلَا يَنْسَى الَّذِي يَعِدُ<sup>2</sup>

<sup>1</sup> استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، مرجع سابق، ص 367.

<sup>2</sup> ذخائر العرب: ديوان البحتري، تح: حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، مج 1، ط 3، (دت)، ص 2545.

واستطاع أن يصل إلى مراده، ونال جزاء مدحه، «فأعطاه خمسين ألف درهم وقال: البيتان خير من القصيدة»<sup>1</sup>.

ومن ثم يمكن القول أن معرفة أسرار السياق وفهمها، والتعامل معها بما يناسب من الخطاب، يكون النجاح حليف صاحبه.

لكنه وبالرغم من فهم السياق، فإن الخطاب قد لا يحقق هدفه، لاسيما إذا انتفت الشروط المساعدة على وصول الخطاب ونجاحه في مهمته؛ فانعدام الكفاءة لدى المرسل إليه لفهم القصد من الخطاب -وهو شرط عام ضروري لكل الخطابات التي تنتهج التلميح- يحول دون أداء الخطاب لقصده، «يتوخمى المرسل إفهام المرسل إليه في خطابه، ولا يتأتى له ذلك إلا بتوفر بعض الشروط في المرسل إليه»<sup>2</sup>.

وعدم وصول الخطاب، أو رفضه من قبل المرسل إليه، يعد في نظر المرسل فشلا، وعليه أن يراجع مدى توافر عوامل النجاح، ومن ذلك «معرفة أصول اللغة بمستوياتها كافة، ودلالات هذه الأصول وكيفية إنتاج الخطاب وفقا لما تقتضيه»<sup>3</sup>.

ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل لابد من الإحاطة بحديثات السياق لدى المرسل إليه، وما نجاح الشاعر البحتري -في المثال السابق- إلا لأنه درس جيدا السياق المحيط بالوالي، ومن نال ما يستحقه.

<sup>1</sup> ذخائر العرب: ديوان البحتري، مصدر سابق، ص2545.

<sup>2</sup> استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، مرجع سابق، ص377.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص378.

وبالعودة إلى الشروط التي ينبغي توافرها ليلقى الخطاب فهما، «امتلاك مهارة العمليات الذهنية في الكفاءة التداولية لإنتاج الخطاب المناسب للسياق....»<sup>1</sup>.

هذا يعني أن المرسل مطالب بأن تكون له دراية مسبقة بكل ما يحيط بالمخاطب، وذلك من محض الاستراتيجية والخطة، وهو ما يسمى أيضا بالأرضية المشتركة بين طرفي الخطاب، تسمح لهما بالتحاور والتواصل فيما بينهما، هذه الأرضية قوامها معرفة المعلومات الثقافية والمعرفية المشتركة بين كليهما<sup>2</sup>.

وهذا بالتأكيد ما يساعد بالدرجة الأولى المرسل على تكييف خطابه وفق هذه المعطيات، ثم المرسل إليه؛ حيث يتسنى له فهم مقصد مخاطبه للرد عليه بما يناسب، وذلك ما يتجلى من خلال النماذج الآتية من الرسالة الجديدة:

«...إِنْ سَلَبْتَنِي -أَعَزَّكَ اللَّهُ- لِبَاسٍ إِنْعَامِكَ، وَعَطَلْتَنِي مِنْ حُلٍّ إِيَّاسِكَ....»<sup>3</sup>.

فاللباس مهمته السّتر والدفع، والحلي الجمال، استعار ابن زيدون هذه الصفات ووصف بها تلك النعم التي كان يتنعم بها في قصر بن جهور، فلما انقطعت العلاقة بينهما انقطعت عنه تلك المزايا، فبقي بلا ستر ولا دفع ولا جمال، وهذا في حد ذاته اعتراف وكناية على مدى الرغد من العيش الذي كان يعيشه، فلا عجب إذن عندما نقرأ للأديب مبالغته في قوله: «...بَعْدَ أَنْ نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى تَأْمِيلِي لَكَ، وَسَمِعَ الْأَصْمُ ثَنَائِي عَلَيْكَ، وَأَحَسَّ الْجَمَادُ بِاسْتِنَادِي إِلَيْكَ»<sup>4</sup>. وقد لجأ الأديب إلى الاستعارة ليكون خطابه أدق وأعمق تأثيرا في نفسية الأمير، ويلين له قلبه.

<sup>1</sup> استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، مرجع سابق، ص 377.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص نفسها.

<sup>3</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص 681.

<sup>4</sup> المصدر نفسه، ص نفسها.

ولما طال به المكوث في السجن، بحث ابن زيدون عما يطيل به صبره، ويقرب به أمله «فَأَبْطَأُ الدَّلَاءَ فَيَضَا أَمْلُوهَا، وَأَثْقَلُ السَّحَابَ مَشِيًّا أَحْفَلُهَا، وَأَنْفَعُ الْحَيَا\* مَا وَافَقَ جَدْبًا، وَأَلْذُ الشَّرَابِ مَا أَصَابَ غَلِيلاً...»<sup>1</sup>.

لم يستخدم الأديب التعبير المباشر، كأن يقول: أعلم أن بطئك هذا، وعدم التفاتك إليّ، وربما نسيانك لي، فهو ليس من باب الكره أو البغض، وإنما تريد بذلك أن تجعلني محتاجاً إلى فضلك. لكن ابن زيدون استخدم تعبيراً آخر أكثر قوة، استخدم فيه الكناية التي تدل على أن الأمير هو الغني والأديب هو الفقير إليه، فحينما شبه الأمير بالسحاب المحمل بالأمطار، وأنه المطر الذي يحيي الأرض بعد الموت، وهو أيضاً الماء الذي يروى به الضمآن، هنا يكمن الفرق بين التعبيرين.

كما استعان ابن زيدون بالموروث الثقافي العربي ممثلاً في الأمثال والحكمة، كقوله: «وَعَلَامَ رَضِيتُ مِنَ الْمَرْكَبِ بِالتَّعْلِيقِ، بَلْ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ، وَإِنِّي غَلْبِي الْمُغْلَبُ، وَفَخَرَّ عَلَيَّ الْعَاجِزُ الضَّعِيفُ، وَلَطَمْتَنِي غَيْرُ ذَاتِ سَوَارٍ»<sup>2</sup>.

لقد جمع ابن زيدون هذه الأمثال ليعبر عن حالته التي وصل إليها؛ حيث أصبح يقنع بالشيء القليل لأجل كرامته التي - كما يبدو - مرّغت بالتراب؛ بأن تعرض للإذلال من قبل أعدائه وحساده. هذه الحالة النفسية التي فرضت عليه من أعز أصدقائه، وعمّقها حساده بإذلاله، لم يشأ أن يكملها بأن يتوسل صراحة، بل استخدم التلميح كأسلوب يحفظ له كرامته، ومن ذلك قوله:

\* الحيا: المطر

<sup>1</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص 696.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص 699.

أَلَسْتُ الْمَوَالِي فِيكَ غُرِّ قَصَائِدٍ      هِيَ الْأَنْجُمُ اقْتَادَتْ مَعَ اللَّيْلِ أَنْجَمًا  
ثَنَاءً كَأَنَّ الرُّوْضَ فِيهِ مُنُورٌ      ضَخًا، وَكَأَنَّ الْوَشْيَ فِيهِ مُنَمَّمًا<sup>1</sup>

لم يفقد الأديب الأمل بعد - رغم كل ما به - وصار يذكر صديقه بما كان بينهما، وبثنائه عليه بقصائده التي وصفها كأنها أنجم تقتاد بها النجوم الأخرى لضياؤها، حالة نفسية تصيب المنكسر الضعيف الذي أصيب في كرامته، فلجأ إلى المنّ مغلفاً بثوب التذكير، وإنها فعلا تعبر عن حالة إحباط يمر بها الشاعر.

وما يؤكد ذلك استخدامه لبعض الأفعال اللغوية تلميحاً لحالته هاته بقوله: «..... وَمَالِكَ لَمْ تَمْنَعْ عَنِّي قَبْلَ أَنْ أَفْتَرَسَ؟ وَتُدْرِكَنِي وَلَمَّا أُمِرْتُ؟ أَمْ كَيْفَ لَا تَتَضَرَّمُ جَوَانِحُ الْأَكْفَاءِ\* حَسَدًا لِي عَلَى الْخُصُوصِ بِكَ؟»<sup>2</sup>.

عاد ليستخدم الاستفهام المتتابع؛ وذلك يدل على استنجاهه بالأمر مما هو فيه، كما استخدم أفعالاً توحى بأنه ترك وحيداً لهجمات الحساد والأعداء، غير أن الملاحظ على هذه الاستفهامات المتتالية أنها مبطّنة بلوم وعتاب، وتتم عن فقدانه للأمل في صديقه، لاسيما وأنه قد توسل إليه، واعتذر وذكر، والآن جاء دور العتاب.

## المطلب الأول: مسوغات الاستراتيجية التلميحية

هناك سياقات تستلزم استخدام التلميح بدل التعبير المباشر؛ فمنها ما هو مرتبط بالفرد في حدّ ذاته؛ كأن يخشى على سرّ ما أن ينكشف، أو أنّ تعبيره بالتلميح أدق وأبلغ من

<sup>1</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص 700.

\* تتضرم: تتوقد، الجوانح: الأضلاع التي تحت الترائب مما يلي الصدر، الأكفاء: الأشباه.

<sup>2</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص 699.

المباشر، ومنها ما هو مرتبط بالثقافة العامة السائدة في المجتمع، «إذ يستعملها المرسل مراعاة لما تقتضيه بعض الأبعاد مثل البعد الشرعي،.... بضرورة احترام أذواق الآخرين وأسماعهم»<sup>1</sup>.

وذلك ما كان تماما من ابن زيدون في تعامله في خطابه لابن جهور؛ حيث استعان بالتلميح لإيصال وشرح حالته في السجن من جهة لإخفاء ذله وانكساره عن الوشاة والأعداء، ومن جهة ثانية تأدبا مع صديقه واحتراما وتقديرا لمكانة الأمير اجتماعيا.

وقد يستخدم التأويل كمنجّي، فالمرسل يرسل خطابه وهو يحتمل عدة تأويلات، فإذا كان الرفض من قبل المرسل إليه على تأويل معين، جاء الرد من قبل المرسل بأنه كان يقصد هذا المعنى وليس ذاك، «ويكون هذا التملص غالبا عند إدارة الأزمات، أو وجود توتر في العلاقة بين أطراف الخطاب»<sup>2</sup>.

فالملاحظ إذن أن الأديب ابن زيدون لم يستخدم التلميح لأنه يتقنه فحسب، بل لأنه سياسي يجيد تحريك خيوط السياسة، فكونه تأثر نفسيا من سجنه وتبعاته، إلا أنه ظل محافظا على تركيزه واستقامة لغته.

وهذه المسوغات تحتاج إلى أفعال كلامية تبلورها وتجعلها مجسدة في إنجازات الخطاب، والمرسل في هذه الحالة عليه أن ينتقي من تلك الأفعال ما يناسب السياق الذي هو فيه، ثم يتخير داخل السياق الاستراتيجية الملائمة، والتي تضمن له وصول خطابه مفهوما، وعدم خيبة أمله في النهاية. لذلك يسعى من خلال استراتيجية التلميح إلى إفهام قصده بواسطة

<sup>1</sup> استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، مرجع سابق، ص 371.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص 372.

أدوات لغوية متنوعة، توظف بحسب طبيعة ووظيفة كل منها، وضمن شروط ملائمة مثل «المضمون القصدي، الحالة النفسية، شروط التحقق أو الإشباع، اتجاه التطابق....»<sup>1</sup>.

لأن مراعاة مثل هكذا ظروف يعدّ ضماناً لنجاح الخطاب، لأنه في الأول والأخير المرسل إليه هو المعني بذلك، وهو المفسر والمؤول للخطاب، ولذلك ينبغي على المرسل أن يراعي أيضاً مدى الاتساق بين المقاصد والأفعال، وأن يحسب حسابه الدقيق للخلفية الاجتماعية والثقافية للمرسل إليه، وفي هذا المعنى يقول "جون سيرل" (John Searle): «فإنّ قصدي يتحقق أيضاً إذا تم إنجاز الفعل الذي يتطلبه مضمون القصد.... ويوجد إلى جانب هذا التوازي في دلالة الألفاظ ومعانيها توازياً في النحو وتركيب الجمل التي تتناول الحالات القصدية»<sup>2</sup>.

لذلك قد يجد القارئ بعض التراكيب النحوية أو البلاغية في غير موضعها، وإنما سبقت في هذا الظرف لمتطلبات السياق المناسب، وحاجيات المرسل في استراتيجية التلميح، وهذا ما سيلاحظ في شرح هذه الأمثلة.

## المطلب الثاني: الأدوات والآليات اللغوية للاستراتيجية التلميحية

### أولاً: الاستعارة

وظف الشاعر في المثال الأول ثلاث استعارات هي:

المضاء لحدّ العزم: كانه لا يعزم على شيء إلا أمضاه ونفّذ فيه حدّه

<sup>1</sup> القصدية: بحث في فلسفة العقل، جون سيرل، ترجمة: أحمد الانصاري، دار الكتاب العربي، (دط)، بيروت، لبنان، 2009، ص 113.

<sup>2</sup> القصدية: بحث في فلسفة العقل، مرجع سابق، ص 114.

وورِي زَنْدَ الأمل: كأنه لا يؤمل شيئاً، إلا وهو يرى نوره  
وثبات عهد النعمة: أي لا تغيّر له ذمة نعمة، بل هي محفوظة أبداً عليه<sup>1</sup>

وظف الشاعر هذه الاستعارات في جمل حالية، لتدل على عاطفته العميقة، وكان بإمكانه أن يستعين بعبارات مباشرة تؤدي المعنى ذاته، إلا أنه يريد أن يحفظ للمقام مقاله المناسب.

أما الاستعارة الأخرى فقوله: «إِنْ سَلَبْتَنِي -أَعَزَّكَ اللهُ- لِبَاسِ إِنْعَامِكَ، وَعَطَّيْتَنِي مِنْ حُلِيِّ إِيْنَسِكَ»<sup>2</sup>.

شبه الشاعر نعم الأمير عليه باللباس الذي يستره وتزينه، كما شبه أنسه بالحلي التي تتجمل بها المرأة. وقد استعمل إن الشرطية لينبه الأمير بأن لا أحد يمكن أن يغدق عليه كما فعل هو، والغاية دائماً هي التأدب مع من معه السلطة. إذن لقد استعمل الاستعارة بدل التعبير المباشر ليكون الخطاب أكثر عمقا وقوة.

ثم أردف ذلك باستعارة في قوله: «وَنَفَضْتُ بِي كَفَّ حَيَاطَتِكَ وَغَضَضْتُ عَنِّي طَرْفَ حِمَايَتِكَ»<sup>3</sup>.

وكانه يشبه وحدته في سجنه بدون حماية ولا نجدة وموانسة الأمير، وبالتالي في الفلاة وقد نفذ مأوه وزاده، فصار يبحث عن ينقذه، وأما قوله: وَغَضَضْتُ عَنِّي طَرْفَ حِمَايَتِكَ،

<sup>1</sup> تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، خليل بن أبيك الصفي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، (دط)، (دت)، 1969م، ص38.

<sup>2</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص681.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص نفسها.



«فقد استعار الطرف للحماية، لما كان الذي يحميك ويقيك كأنه ناظر إليك»<sup>1</sup>، تماما كالذي يكلف بحراسة شيء ثمين، فلا يكاد يتحرك له جفن.

وإنما استخدم الشاعر هذه الاستعارة للدلالة على مدى حاجته الماسة للأمير، وخوفا - في الوقت ذاته - من إذلال الزمان والأيام له، لأنه ينطلق - كما سبق القول - من فكرة الأنا الذي أحيط بكل أصناف الرعاية والعناية والثراء والعظمة، فكيف بين عشية وضحاها يرمى في السجن ذليلا؟ ولذلك راح يعدد لابن جهور أنواع مظالمه عليه، ليكسب رحمته به وليبلغه ألمه النفسي خاصة.

### ثانيا: المبالغة

قوله: «بَعْدَ أَنْ نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى تَأْمِيلِي لَكَ، وَسَمِعَ الْأَصْمُ ثَنَائِي عَلَيْكَ، وَأَحَسَّ الْجَمَادُ بِاسْتِنَادِي إِلَيْكَ»<sup>2</sup>.

وصلت درجة المبالغة عند الشاعر أن عبّر عن حسرته وخيبة أمله في الأمير، ومدى إصابته في نفسيته، أن الأعْمى قد أبصر رجاءه وأمله الذي طال انتظاره، ولعل ابن زيدون قصد من وراء ذلك نظر البصيرة وليس البصر؛ أو أنه يريد القول: من كثرة وشدة رجائي وأملِي العريض في الأمير ولم يتحقق، لكان كالأعمى قد أصيب بالعمى وطال أمله في عودة البصر إليه، وعاد إليه، إلا أنا فقد طال أملِي ولم أنل شيئا.

ومن كثرة ثنائي عليك سمع الذي أصابه الصمم، وفيها كناية أيضا على مدى شعوره بالإحباط من تصرف الأمير بعدما كان صديقه المقرب.

<sup>1</sup> تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، مرجع سابق، ص 41.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص 42.

وقوله: «وَأَحْسَّ الْجَمَادُ بِاسْتِنَادِي إِلَيْكَ»، وفي ذلك يقول الصفدي في شرح هذه الجزئية: «.....وَأَحْسَّ الْجَمَادُ الَّذِي لَا إدْرَاكَ لَهُ وَلَا إحْسَاسَ بِرَفْعِ الْحَدِيثِ إِلَيْكَ؛ وهذه غاية في المبالغة، وطبقة عالية في البلاغة، وهو أن يثني عليه إلى أن يسمعه الأصم، ويسند إليه حتى يحس الجمد بذلك»<sup>1</sup>.

هذه المبالغة الزائدة لم تجر على لسان الشاعر اعتباطاً، وإنما كانت له قراءة مسبقة لما حوله، محص السياق الذي وضع فيه، فاختار له بذلك الخطاب المناسب؛ راعى فيه الخلفية الاجتماعية له وللأمير، فبدلاً من أن يباشره بخطاب التوسل العادي، والذي سيترك أثره سلباً شك - عند حاسديه، استعمل الكناية والمبالغة كمنفذ لقلب الأمير.

### ثالثاً: الكناية

لم يشأ ابن زيدون أن يغير منهجه في الخطاب، والقائم على التأدب بالدرجة الأولى، ورغم مبالغته في وصف الأمير إلا أن حنوه تأخر عليه، فلم يذهب مذهباً آخر بخطابه، بل راح يعتذر بقوله: «فَأَبْطَأُ الدَّلَاءَ فَيَضَا أَمْوُهُا، وَأَثْقَلُ السَّحَابِ مَشِيًّا أَحْفَلُهَا»<sup>2</sup>. فبالرغم من ضيق السجن عليه، وما أحسّ فيه من ذل، إلا أنه راح يعتذر ويحسن في اعتذاره بعبارات فصيحة، وذلك ما يسمى بحسن التعليل.

<sup>1</sup> تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، مرجع سابق، ص 45.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص 78.

وإن كان الجرح عميقا بداخله، يستمر الشاعر في الاعتذار للأمير تلميحا لا تصريحاً بقوله: «.....وَأَنْفَعُ الْحَيَا مَا وَافَقَ جَدْبًا\*، وَالذُّ شَرَابٍ مَا أَصَابَ غَلِيلاً»<sup>1</sup>.

أحسن اعتذار يقدمه ابن زيدون؛ إذ يقول الصفدي عنه: «وهذا من أحسن الاعتذار للمخاطب في إهماله الجواب، وتركه الإجابة إلى قصده»<sup>2</sup>، ذلك لأن المطر يكون للأرض الجدياء أنفع، ويكون للعطشان ألد.

فمن مقتضيات التلميح في الاستراتيجية التداولية المعرفة المسبقة للخلفية الثقافية المشتركة بين المخاطب والمخاطب، ولذلك كان خطاب الشاعر في هذا المضمون؛ أن جعل من نفسه الأرض والنفس العطشى والضمان، وجعل من الأمير ذلك الماء الذي يحيا به كلاهما.

وقوله: «.....وَمَعَ الْيَوْمِ غَدٌ، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ.....»<sup>3</sup>، ويعني بذلك، كناية على تقلب الدهر، كما تقول العرب: «يأتيك كل غد بما فيه» خيرا كان أو شرا.

وقوله: «.....وَالسَّعَاةُ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ فَقَالَ: مَا ظَنُّكَ بِقَوْمِ الصِّدْقِ مُحَمَّدٍ إِلَّا مِنْهُمْ»<sup>4</sup>.

هذه الكناية توحى بأن حاسدي الشاعر لم يكفوا عن مسعاهم إلى الإساءة إليه منذ أن قرّبه الأمير منه، لأن السعي كلفظة مطلقة تشير إلى الحركة الدؤوبة في المنفعة والخير،

\* الحيا: (مقصود غير ممدود) المطر والخصب، الجذب: المَحْلُ، أرض مُمَحَّلَة: عطشى

<sup>1</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص 696.

<sup>2</sup> تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، مرجع سابق، ص 80.

<sup>3</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص 696.

<sup>4</sup> المصدر نفسه، ص نفسها.

لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۝ وَهُوَ يَخْشَى ۝ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ۝﴾ [سورة عبس، ٨-١٠]

#### رابعاً: التعبير الاصطلاحي

هو التعبير الذي يستعمل فيه المخاطب عبارات متفق عليها بين الناس، لتؤدي قصداً معيناً، ومنها الأمثال والحكم وغيرها. إذ يقول ابن زيدون: «.....وعَلَامَ رَضِيتُ مِنَ الْمَرْكَبِ بِالتَّعْلِيقِ، بَلْ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ.....»<sup>1</sup>.

لم يصرح الشاعر بقوله هذا بأنه سيأخذ القليل من الكل ويرضى به، وإنما أورد مثلين عربيين قديمين ليوصل قصده تلميحاً، فالمثل الأول لفظة: «رَضِيتُ مِنَ الْمَرْكَبِ بِالتَّعْلِيقِ»، ومعناه أَرْضَى مِنْ عَظِيمِ الْأَمْرِ بِصَغِيرِهِ<sup>2</sup>، وهو كناية على القناعة.

وقوله: «.....وَإِنِّي غَلْبِي الْمَغْلَبُ، وَفَرَّ عَلَيَّ الْعَاجِزُ الضَّعِيفُ، وَلَطَمْتَنِي غَيْرُ ذَاتِ سِوَارٍ»<sup>3</sup>. هنا جمع الشاعر بين ثلاثة أمثال للعرب، وفيها يلمح إلى أن أشد ما يؤلمه نفسياً ذلك الضعيف الذي يتفاخر عليه، أو يتغلب عليه بأن يستقوى عليه بغيره، وهو أضعف من أن يجاريه، وفي ذلك ذل كبير.

أما قوله: «لَطَمْتَنِي غَيْرُ ذَاتِ سِوَارٍ»، فهو كناية على أنه يحزنه أن يتمادى في ظلمه من هو أضعف وأحقر، لذلك جيء بالمثل ومعناه: لو لطمني من كان كفاءً لي لهان علي<sup>4</sup>،

<sup>1</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص 699.

<sup>2</sup> تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، مرجع سابق، ص 270.

<sup>3</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص 699.

<sup>4</sup> ينظر، تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، مرجع سابق، ص 275.

ويخيل للقارئ لهذه الأمثلة أن ابن زيدون متعال حتى في تصرفاته مع من ظلموه، وكأنه يقول: "لستم من مستوأي".

### خامسا: الأفعال اللغوية

الأفعال اللغوية غير المباشرة المستخدمة في استراتيجية التلميح هي تلك الأفعال التي تسهل الانتقال بالخطاب من معناه الحرفي إلى قصد المرسل، ولذلك قد يصادف القارئ عبارات ليست في موضعها الأصلي، ووظفت في وظيفة أخرى، كقول ابن زيدون في هذا المثال: «وَمَالِكَ لَمْ تَمْنَعْ عَنِّي قَبْلَ أَنْ أُقَرَّسَ؟ وَتُدْرِكُنِي وَلَمَّا أُمِرْتُ؟»<sup>1</sup>.

يصف الصفدي هذا الاستفهام بأنه جاء ليؤدي وظيفة الإغراء والحض والحث على إنقاذه<sup>2</sup>، وهذه الأفعال -كما مرّ- هي أدوات التوجيه، ولذلك استخدمها الشاعر في غير موضعها تماشياً مع السياق.

وفي قوله: «...أَمْ كَيْفَ لَا تَضُرُّمُ جَوَانِحُ الْأَكْفَاءِ حَسَدًا لِي عَلَى الْخُصُوصِ بِكَ؟»<sup>3</sup>، مازال الشاعر يحث ويحض ابن جهور على إنقاذه، مستعملاً الاستفهام بدل أدوات التحضيض؛ مثل: لولا، ألا، لو....، وفي ذلك تلميح إلى الصداقة التي كانت بينهما، ودليل ذلك أنه عبّر عنها -أي الصداقة- بلفظة الكفاء، والذي هو كفاء لغيره في الحسب والنسب وغير ذلك كما يقول الصفدي<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص 699.

<sup>2</sup> ينظر، تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، مرجع سابق، ص 275.

<sup>3</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص 699.

<sup>4</sup> ينظر، تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، مرجع سابق، ص 278.

ومنه انتقل ابن زيدون من التصريح العادي المستهلك يوميا -إن صح القول- إلى المعنى القصدي، حتى يسمح للأمير في إثارة قضيته في تفكيره، ومن ثم العدول عن قراره وإطلاق سراحه.

### سادسا: الملمحات

وهي أدوات لغوية تستعمل كمؤشر تلمحي على قصد المخاطب، والتي ترد معبرة عن معان متنوعة، كالشكوك والافتراضات والتأكيدات، ومنها على سبيل المثال لا الحصر أفعال الرجحان: ظن، خال، زعم، حسب،....<sup>1</sup>، وفيها جاء عن ابن زيدون قائلا:

أَلَسْتُ الْمَوَالِي فِيكَ غُرَّ قَصَائِدٍ      هِيَ الْأَنْجُمُ اقْتَادَتْ مَعَ اللَّيْلِ أَنْجُمًا\*  
ثَنَاءً كَأَنَّ الرُّوضَ فِيهِ مُنُورٌ      ضَخًّا، وَكَأَنَّ الْوَشْيَ فِيهِ مُنَمَّمًا<sup>2</sup>

يلمح الشاعر في هذين البيتين إلى مدى سموّ الثناء الذي تلقاه الأمير منه عبر قصائده، والتي كانت بمثابة أثواب مزينة بألوان عديدة، وكان فضل هذا الثناء المتعدد في قصائده تماما كفضل تلك الألوان على الثوب الأبيض.

من خلال هذه الجولة بين ثنايا الاستراتيجية التلميحية وبين محطاتها؛ من مسوغات وعوامل وأدوات وآليات، يمكن استنتاج ما يأتي:

فأما من حيث الخطاب، فهي تتمتع بميزة تنفرد بها عن باقي الاستراتيجيات؛ ففيها يمكن للمرسل أن يعدد خطاباته في خطاب واحد.

<sup>1</sup> ينظر، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، مرجع سابق، ص396.

\* اقتادت (من القود): افتعلت، منورا: من النور الموشى وهو الزهر الموشى هو ضرب من حلل الحرير ذو ألوان، المنمم: الثوب الموشى.

<sup>2</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص700.

يمكن للمرسل في هذه الاستراتيجية أن يناور بخطابه بفضل ذلك الهامش الممنوح له؛ كأن يتهرب من مسؤولية الخطاب المباشر، أو كأن يتملّص من الخطاب المباشر خوفاً من أن يستخدم ضده.

خطاب التلميح يحتمل أكثر من تأويل؛ من حيث القريب أو البعيد.

يتطلب الخطاب التلمحي الخلفية الثقافية والاجتماعية التي يعيشها المرسل إليه، وذلك درءاً لأي إخفاق في قبول الخطاب.

يمكن للخطاب التلمحي أن يراعي التأدب، تماشياً مع الآداب الشرعية والعادات والأعراف، لأن ذلك من وجهة نظرهم احترام لخصوصياتهم.

يبتغي المرسل في الخطاب التلمحي في بعض الأحيان إظهار علوّ قدره على غيره وإضفاء بعض التميز عنهم.

يستخدم الخطاب التلمحي أدوات لغوية تنتقل به من الصيغة الحرفية المباشرة إلى الصيغة الخفية أو الباطنية. كما يلجأ هذا الخطاب إلى الأدوات البلاغية إذا كان القصد يتطلب ذلك.

أما من حيث المخاطب فقد انتهج ابن زيدون في خطابه التلمحي منهاجاً دقيقاً وعميقاً؛ حيث اعتمد على عبارات فخمة توحى بأنها نابعة من شخصيته المتعالية.

اعتمد الاستفهام المتتالي في كذا موضع، وذلك تنبيهاً لابن جهور كي يلتفت إلى حاله.

استخدم الاستفهام في غير موضعه بصيغة الإغراء والتحضيض طلباً للعفو عنه، كما في قوله: «وَمَالِكَ لَمْ تَمْنَعْ عَنِّي قَبْلَ أَنْ أُفْتَرَسَ؟ وَتُدْرِكُنِي وَلَمَّا أُمْرِقُ؟»<sup>1</sup>.

لم يكن ابن زيدون مثلونا في شخصيته بقدر ما كان ماهراً في تنويع خطابه، فمرة مذكراً، وتارة منبهاً للأمير، وأخرى معتذراً، وكل ذلك لا تجد بين هذه التنوعات تناقضاً أو اختلافاً.

كان رجاء الشاعر من ابن جهور منصباً على ألا يذله بين الشامتين، لأن ذلك يعدّ انتصاراً لهم، وهم أدنى منه وأضعف.

كان ابن زيدون محافظاً على تأدبه، مراعيًا لمكانة الأمير عنده بالرغم مما أصابه، إلا أنه لا يستسيغ شماتة الشامتين لقوله:

كُلُّ الْمَصَائِبِ قَدْ تَمَرَّ عَلَى الْفَتَى وَتَهَوَّنُ، غَيْرَ شِمَاتَةِ الْحَسَادِ<sup>2</sup>

يعتبر ابن زيدون من خلال اللغة الراقية التي يستخدمها في خطابه واعياً بقصده؛ حيث يوظف عبارات عالية المستوى، إلا أنها توصل الفهم إلى القارئ.

## المبحث الرابع: الاستراتيجية الإقناعية

قبل المرور إلى الأمثلة، ينبغي الإشارة إلى بعض المميزات التي تختص بها استراتيجية الإقناع دون سواها، أو تلك التي تشترك فيها مع باقي الاستراتيجيات؛ فهي بداية تصنف لوحدها في معيار الهدف؛ بمعنى أن استخدامها مرهون فقط ببلوغ هدف واحد، ألا

<sup>1</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص 699.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص 682.



وهو الإقناع. وتندرج تحت هذا الهدف أهداف فرعية؛ كتغيير فكرة ما لدى المرسل إليه، أو إحداث تغيير في موقفه<sup>1</sup>.

وباختلافها في معيارها، فهي مختلفة أيضا في أدواتها وآلياتها، ولو أنها تشترك مع التلميحية في بعض الآليات البلاغية، وكذا في التلميح في حد ذاته. كما أنها تشمل جميع مستويات البشر، وفي كل المجالات، وهي الاستراتيجية التي تخاطب العقل دون العاطفة، وتستخدم اللغة الطبيعية، ومن وظائف اللغة المتعددة: وظيفة الإقناع، كما تستعمل من أجل تحقيق أهداف فرعية نفعية تدخل ضمن هدفها الرئيس؛ كالانتخابات والتجارة والتربية....<sup>2</sup>

فالإقناع وسيلة يُلجأ إليها حديثا بعدما أثبتت وسائل الإكراه عدم جدواها، إضافة إلى نفور المخاطب منها وتعتته. غير أن الأمر لا يبدو بهذه البساطة التي يتصورها البعض، فالإقناع ليس مجرد تضمين الخطاب بحجج دامغة وانتهى الأمر، إنما يتعدى إلى أبعد من ذلك، فالمرسل إليه ليس غبيا ولا بليدا، فتركيزه منصب على مدى توافق القول مع الفعل.

بمعنى آخر إذا كان الإمام مثلا- يحث الناس كل جمعة على أن الحياة في شرعنا الحنيف نظام متواصل ومتكامل، ومرتب أحسن ترتيب، في حين يجد المصلون إمامهم مفرطاً في أولاده وأسرته. هنا تسقط الحجة وتلغى من قبل المصلين، وبالطبع لعدم توافق الخطاب والحجة مع الفعل، وفي ذلك يقول محمد أبو زهرة: «مرامي الإقناع الخطابي ليس هو الإلزام والإفهام فقط، بل مرماه حمل المخاطب على الإذعان والتسليم»<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> ينظر، استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، مرجع سابق، ص444.

<sup>2</sup> ينظر، استراتيجية الإقناع في الخطاب اللغوي التواصلية، أحمد عرابي، مجلة رفوف، مخبر المخطوطات الجزائرية في غرب إفريقيا، جامعة أدرار، الجزائر، العدد4، 2014م،

<sup>3</sup> الخطابة: أصولها تاريخها في أزهى عصورها عند العرب، محمد أبو زهرة، مطبعة العلوم، ط1، 1353هـ/1934م، ص68.

والتسليم بالفكرة يكون بإثارة العاطفة مصحوبة بالدلائل القوية التي تحرك عقله، وتجعله يغير موقفه، مع الصدق الذي يتمظهر في موافقة الفعل للقول. بيد أنه توجد هناك عقبة أخرى قد تصادف المرسل، وهي رفض المرسل إليه لحجج المرسل، فما العمل إذن؟

على المرسل -في هذه الحالة- أن يبنى لنفسه صورة متكاملة عن المخاطب، وبيئته وثقافته ونوعية تفكيره، كما يتوقع الحجج التي يمكن أن يقدمها ليدحض حجج المرسل، ومن ثم فهو يبحث عن سلطة، لكن ليس بالمفهوم التقليدي، وإنما هو: «إبداع السلطة، فالإقناع سلطة عند المرسل في خطابه، ولكنها سلطة مقبولة إذا استطاعت أن تقنع المرسل إليه...»<sup>1</sup>.

يكون السعي من خلال هذا المبحث للوقوف على مدى تحقق الإقناع في رسالة ابن زيدون من خلال تطبيق آليات وأدوات الإقناع على خطابه النثري والشعري في الرسالة. ويكون ذلك من خلال هذه النماذج المستخرجة من الرسالة؛ إذ يقول ابن زيدون: «...وَهَلْ لِبَسِ الصَّبَاحِ إِلَّا بُرْدًا طَرَزَتْهُ بِفَضَائِلِكَ،.... وَاسْتَمَلَى الرَّيْعُ إِلَّا ثَنَاءً مَلَائَتْهُ مِنْ مَحَاسِنِكَ؟»<sup>2</sup>.

وظف ابن زيدون في هذه النماذج ثلاث آليات للحجاج وهي: الجناس والاستفهام والاستعارة، وهذا يدل على مدى إدراكه لصعوبة المهمة التي يقوم بها، ومن ثم لجأ إلى التنويع في الحجة، بل أنه ينوّع في الحجة الواحدة كما في قوله: «وَاعْتَقَادِي أَنَّ الطَّمَعَ فِي غَيْرِكَ طَبَعٌ\*، وَالْغِنَى مِمَّنْ سِوَاكَ عَنَاءٌ»<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> استراتيجية الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، مرجع سابق، ص 446.

<sup>2</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص 701.

\* طَبَعٌ: دنس

<sup>3</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص 709.

وقد أتى بما يسمى بجناس المظمع، ويعتبره المختصون أعلى درجات الجناس<sup>1</sup>، ويضرب لذلك الصفدي مثالا لهذا الجناس؛ كقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي برويه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: ﴿الخليل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر والمغرم﴾ «متفق عليه، وهذا لفظ البخاري».

ومن أوجه التنويع في الحجة التي استخدمها ابن زيدون أيضا الاستعانة بالدليل الجاهز، ويعرف تداوليا بحجة الدليل، كما في قوله: «وَمَا يَوْمٌ حَلِيمَةً بِسِرٍّ»<sup>2</sup>.

ضرب ابن زيدون هذا المثل، وهو كحجة أيضا ليشد ويقوّي من موقفه وأسلوب إقناعه؛ أي أنه يذكر الأمير ابن جهور يوم وقف معه بشخصه وأدبه ضد أعدائه وانتصاره عليهم، تماما كما وقفت حليلة بنت الحارث ببخورها مع أبيها وجيشه وانتصاره على المنذر.

ولا يزال ابن زيدون يحاول إقناع ابن جهور ليخرجه من سجنه، وما زال ينوع في حججه اللغوية من أجل ذلك، ففي هذا المثال: «.....ثُمَّ مَا قَرَأُ السَّعْدَ لِلْكَوَاكِبِ أَبْهَى أَثْرًا، وَلَا أَسْنَى خَطَرًا مِنْ اقْتِرَانِ غِنَى النَّفْسِ بِهِ وَانْتِظَامِهَا نَسَقًا مَعَهُ»<sup>3</sup>.

والقران هو الجمع بين شيئين في الوقت ذاته، والأديب هنا يصف القران في حالتين متقابلتين؛ أي أنه يقارن بين أن تكون النفس غنية في ذاتها، متعففة، وبين أن تمتد طموحاتها إلى أبعد مما تقدر على تحقيقه، وهذا ما يسمى في المنهج التداولي الحجاج بالتبادل.

<sup>1</sup> ينظر، تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، مرجع سابق، ص335.

<sup>2</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص701.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص706.

استخدم ابن زيدون الوصف كأسلوب للإقناع وإظهار الحجة كقوله: «...عَارِضَةُ النَّظْمِ مُبَاهِيًا، بَلْ كَايِدُهُ مُدَاهِبًا»<sup>1</sup>. ويريد أن يفخر بشعره ونثره الذي سخره لأجل الأمير، ويصف من خلال اسم الفاعل مباهايا، مداها، مدى حرصه على تجويدها من أجل الأمير.

كما أن ابن زيدون عاد واستعمل استراتيجية التضامن والتلميح كوسيلتين للإقناع بقوله: «...وَأَسْتَأْنِفُ التَّأْدِبَ بِأَدَبِكَ، وَالْإِحْتِمَالَ عَلَى مَذْهَبِكَ»<sup>2</sup>. وهذه إشارة واضحة بأنه قد أخطأ، وأنه يتوب من ذلك، وأنه مستعد لأن يعود إلى سابق عهده، وهذا من صميم بناء العلاقات الحميمة أو إعادتها إلى ما كانت عليه.

### المطلب الأول: مسوغات الاستراتيجية الإقناعية

يكون هدف المرسل الأول من خلال استراتيجية الإقناع أن يرى تغيرا لدى المرسل إليه من حيث الأفكار والمواقف، وأن خطابه قد أدى مهمته بنجاح، وأن استراتيجيته في الإقناع قد أتت أكلها، «لأنها تتبع من حصول الإقناع عند المرسل إليه غالبا»<sup>3</sup>. ولأن ابن زيدون كان يعلم منذ البداية بأن التعامل مع الأمير ينبغي أن يكون منطلقه للإقناع، وليس شيئا آخر، ولذلك التجأ إلى أدبه.

خطة الإقناع تعتمد في أصلها على براعة وذكاء المرسل في اختيار آلياته الخطابية، وحسن استخدامها في مواضعها بدقة، مستجابة في ذلك لميولات المرسل إليه، «فإقناع المرسل إليه هدف خطابي يسعى المرسل إلى تحقيقه في خطابه»<sup>4</sup>، ولأجل الغرض ذاته سعى

<sup>1</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص 716.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص 714.

<sup>3</sup> استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، مرجع سابق، ص 445.

<sup>4</sup> المرجع نفسه، ص 446.

ابن زيدون إلى استخدام أدبه -شعره ونثره- وكأن لسان حاله يقول: إن لم يفلح الشعر يفلح النثر.

غير أن الخطاب لا يكون كافيا -بالرغم من تنوعه- إلا إذا استخدم المرسل آلياته الحجاجية، لأن المرسل إليه سيحاول صد الخطاب ما لم يقتنع به، «لأن من شروط التداول اللغوي شرط الإقناعية»<sup>1</sup>. وفي هذا السياق كثّف الأديب من استعمال أدوات الحجاج ونوع فيها، لعلّمة بطبيعة صاحبه أنه صعب المراس والخداع.

وكون الإكراه لم ينفذ، وذلك من خلال التجارب التي وثقتها الكتب في شتى المجالات كالتربية والسياسة، التجأ الخطاب إلى استراتيجية الإقناع، «ومردّد ذلك أن المرسل إليه قد تغيرت ثقافته وإدراكه لكثير من الأمور، ولم يعد بالتالي يتقبل بعض الاستراتيجيات»<sup>2</sup>.

ومن ثم، وانطلاقاً من التغير في إدراك الأمور، لجأ ابن زيدون إلى التنوع في أساليب الإقناع، غير أن هناك ثوابت لا تتغير مع مرور الزمن، ولا شك أن لها التأثير القوي على نفسية المرسل إليه، لاسيما من حيث تقديسها، ولذلك ركز ابن زيدون على القصص القرآني والسيرة والأمثال والحكم.

قد يقع المرسل في مواقف يجد فيها نفسه خالي الوفاض؛ أي أنه لا يملك سلطة ولا قراراً، وفي الوقت نفسه هو مجبر على أن يقنع الطرف الآخر، وهنا لابد من إبداع سلطة من خلال الإقناع، «فالإقناع سلطة عند المرسل في خطابه»<sup>3</sup>، لاسيما إذا تعززت بالحجج المقبولة لدى المرسل إليه.

<sup>1</sup> استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، مرجع سابق، ص 446.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص نفسها.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص نفسها.

تماما كما حدث مع ابن زيدون، فقد اعتمد على سعة اطلاعه وإلمامه، فوظفه في أدبه، ومن ثم كوّن لنفسه سلطة لغوية إقناعية جابه بها الأمير، إلا أن هناك أمرا في غاية الأهمية يعزز هذه السلطة، ألا وهو اقتناع المرسل بسلطته أولا وإيمانه وثقته بأنه على قدرة في الإقناع وتغيير الأفكار والمواقف بها.

### المطلب الثاني: الأدوات اللغوية للاستراتيجية الإقناعية

بما أن هذه الاستراتيجية تسعى لتحقيق هدف وحيد هو الإقناع، وبما أن مساحتها المتاحة واسعة في المجتمع، فإن آلياتها تكون بالضرورة متنوعة؛ فمنها اللغوية، ومنها غير اللغوية، وتسمى بالأدلة المادية، وذلك في مجال البحث والتحري.

كما توجد هناك آليات هي عبارة عن سمات تصدر عن الشخص أو المرسل تظهر في حركات جسمه، أو علامات في وجهه. لكن ما يهم البحث هو القسم الأول المختص باللغة باعتبارها حاملة ومتضمنة للخطاب ومكوناته الإقناعية، وهي قسمان: أدوات لغوية وآليات بلاغية، ولتكن البداية بالآليات اللغوية ثم البلاغية.

## أولاً: آليات الإقناع

### الأدوات اللغوية للحجاج

#### 1- في الاستفهام

يقول ابن زيدون: «.....وَهَلْ لِبَسِ الصَّبَاحِ إِلَّا بُرْدًا طَرَزَتْهُ بِفَضَائِلِكَ.....»<sup>1</sup>، ورد الحجاج في هذا المثال على غير هيئته أو وظيفته المعتادة؛ إذ وظفه الشاعر لإثبات الحجة، حجة أنه لم يخن الأمير قط، ولم يجحد نعمته أبداً، كما استخدمها الشاعر -أي الحجة- متضمنة في الاستفهام، فكان هو في حد ذاته حجة؛ أي جاء الاستفهام في موضع الحجة.

#### 2- أدوات الربط الحجاجي

قوله: «.....وَأِنْ كُنْتُ لَمْ أَكُكْ سَلِيًّا، وَلَا حَلِيَّتْكَ عَطِلًا، وَلَا وَسَمْتُكَ غُفْلًا\*، بَلْ وَجَدْتُ آجِرًا وَجِصًّا فَبَنَيْتُ، وَمَكَانَ الْقَوْلِ ذَا سَعَةٍ فَقُلْتُ»<sup>2</sup>، يطرح الشاعر في هذا المثال قضيتين: فأما الأولى فهي أنه لما أتى قصر ابن جهور لم يجده محتاجاً إليه ليزينه بكلامه أو مدحه وثنائه. وأما الثانية فهي أنه وجد هامشاً بسيطاً لتقديم يد المساعدة فساهم، وقد ربط بين القضيتين بالرابط الحجاجي اللغوي "بل".

<sup>1</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص701.

\* غُفْلًا: المكان الخالي، يقال أرض غفل لا علم بها ولا أثر عماره. سليب: بدون غطاء، يقال شجر سليب لا ورق عليه. حَلِيَّتْكَ: ألبستك الحلي. العطل: القلائد.

<sup>2</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص702.

### 3- الدليل الجاهز

قوله «وَمَا يَوْمٌ حَلِيمَةٌ بِسِرٍّ»<sup>1</sup>، هذا المثال -الذي هو مثل عربي قديم- وظفه الشاعر كدليل جاهز يقوي به بنيته الموصلة إلى الإقناع. وبالنظر إلى معنى المثل وما قبله والسياق الذي وظف فيه، فهو مناسب لجعله مساعدا لتقوية الحجة.

ويدخل هذا التوظيف في الأدوات اللغوية، وتحديدًا فيما يسمى بحجة الدليل، وهي حجة منقولة على لسان المرسل، وليس من إنتاجه، تكون بحسب السياقات المحيطة به، وهي تعتمد على آي القرآن الكريم أو الأحاديث الشريفة أو الحكم والأمثال، والهدف من هذا النقل الجاهز رفع سلطوية الخطاب، ومن ثم الرفع من درجة الإقناع.

### 4- في الوصف

قوله: «...عَارَضُهُ النَّظْمُ مُبَاهِيًا، بَلْ كَايَدُهُ مُدَاهِبًا»<sup>2</sup>. أما في هذا المثال فقد لجأ الشاعر إلى توظيف أداتين لغويتين للإقناع هما: أداة الربط ثم الوصف، فمثلا في اسم الفاعل مباحيا، مداهبا.

### 5- في الحجاج بالتبادل

قوله: «...ثُمَّ مَا قَرَأَ السَّعْدُ لِلْكَوَكِبِ أَبْهَى أَثْرًا، وَلَا أَسْنَى خَطَرًا مِنْ اقْتِرَانِ غِنَى النَّفْسِ بِهِ وَاتِّظَامِهَا نَسَقًا مَعَهُ»<sup>3</sup>. يرد الحجاج بالتبادل ليصف المرسل فيه الحال نفسه في وضعين ينتميان إلى سياقين متقابلين، مثل: "أحب لي كما تحب لنفسك".

\* هي حليلة بنت الحارث بن أبي شمر، كانت قد أخرجت لجيش أبيها طيبا في مركز فطيتهم

<sup>1</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص701.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص716.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص706.



## 6- في توظيف استراتيجية أخرى

قوله: «...وَأَسْتَأْنِفُ التَّأْدِبَ بِأَدَبِكَ، وَالْأَحْتِمَالَ عَلَى مَذْهَبِكَ»<sup>1</sup>. ويقول الصفدي في شرحه لهذا القول: «...يعني أتوب عما كنت مرتكبه من الطريق الأول فأرجع عنها، وأخذ الآن بأدبك وأسلك طريقك وأحذو حذوك»<sup>2</sup>.

أي أن ابن زيدون، ولكي يثبت لابن جهور صدق نيته وفعله لجأ إلى استخدام استراتيجية التضامن والتلميح في آن واحد؛ فمن جهة عزز العلاقة بينه وبين ابن جهور بقوله: "وأستأنف" أي أنه لم يجد لعلاقتهما سببا حتى تنقطع، ومن جهة ثانية ليوهمه تلميحا أنه لا يجد طريقا أصح من طريقه.

## ثانيا: آليات البلاغة

### 1- المبالغة في التشبيه

قوله: «...وَهَلْ لِبَسِ الصَّبَاحِ إِلَّا بُرْدًا طَرَزَتْهُ بِفَضَائِلِكَ؟،... [وَأَسْتَمْلَى الرَّيِّعُ إِلَّا ثَنَاءً مَلَأَتْهُ مِنْ مَحَاسِنِكَ؟]»<sup>3</sup>. دأب أهل البلاغة والنثر أن يستعيروا الأشياء التي تُسمع فقط بأشياء تدرك بالبصر والشم، وذلك ما فعله ابن زيدون في هذا المثال، وقصد من ذلك زيادة المبالغة في التشبيه والوصف<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص 714.

<sup>2</sup> تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، مرجع سابق، ص 373.

<sup>3</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص 701.

<sup>4</sup> ينظر، تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، مرجع سابق، ص 373.

## 2- في الجناس

قوله: «....[وَاسْتَمَلَى الرَّبِيعُ إِلَّا ثَنَاءً مَلَأَتْهُ مِنْ مَحَاسِنِكَ؟]....وَاعْتَقَادِي أَنَّ الطَّمَعَ فِي غَيْرِكَ طَبَعٌ\*، وَالْغِنَى مِمَّنْ سَوَاكَ عَنَاءٌ»<sup>1</sup>. وظف الشاعر في هذا المثال نوعين من الجناس، فأما الأول فهو جناس اشتقاق، وأما الثاني فهو جناس المطمع، «وقد أتى بالجناس بين قوله: "ملأته" و"استملى" وهو جناس اشتقاق على قول، واستعار الاستملاء للربيع، المحل للمحاسن، فأحسن في ذلك»<sup>2</sup>.

أما النوع الثاني من الجناس؛ وهو جناس المطمع، فقد شرحه الصفدي بقوله: «وهو متى فرغ من ركنه الأول وابتدأ بالثاني أطمع السامع أنه موافق لحروف الأول، فإذا كمل الركن الثاني خالف الأول»<sup>3</sup>. ولأجل هذا الغنى في اللغة العربية، كان من المهم جدا أن يجمع بين هذين النوعين من الجناس في مثال واحد.

وقد ضرب الصفدي في معرض حديثه في شرح هذا الجناس مثالا وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۖ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [سورة العاديات، ٧-٨]، وهذا النوع من أعلى الجناس<sup>4</sup>.

\* طَبَعٌ: دنس

<sup>1</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص 709.

<sup>2</sup> تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، مرجع سابق، ص 290.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص 335.

<sup>4</sup> المرجع نفسه، ص نفسها.

### 3- في الاستعارة

قوله: «...وَبَثَّ الْمِسْكُ إِلَّا حَدِيثًا أَذَعَتْهُ فِي مَحَامِدِكَ»<sup>1</sup>، وقد استعار ابن زيدون الحديث لرائحة المسك ليثبت لابن جهور أن كلامه لم يكن أي كلام، فكان من طبيته -وهو موجه إليك- كطيبة رائحة المسك، وأن انتشاره كانتشار المسك في الأرجاء.

### 4- في الطلب

قوله: «...فَاسْتَحْسَنَ الْعَائِدَةَ مِنْهُ، وَاعْتَدَّ بِالْفَائِدَةِ لَهُ...»<sup>2</sup>، يقول الصفدي شارحا هذا المثال: «وهذا الكلام أخرجه مخرج التوكيد لاستعطاف ابن جهور، وميل نفسه إلى هذا النظم وقبوله له، وأنه صادف من قلبه موصعا...»<sup>3</sup>.

### 5- في التمثيل

قوله: «وَأَكُونُ كَالذُّبَالَةِ\* الْمَنْصُوبَةِ تُضِيءُ لِلنَّاسِ (وَهِيَ) تَحْتَرِقُ، [ذَلِكَ الْمَثَلُ الْأَعْلَى، وَهُوَ بِكَ -وَبِي فِيكَ- أَوْلَى]»<sup>4</sup>. وظف الشاعر التمثيل في هذا المثال لبيان الحجج، بمعنى يريد القول: كيف لي أن أعيش في كنفك طول هذه المدة، وكنت تغدق علي، ثم أنسى ذلك في لحظة وأخونك؟ كذلك الأمر لك، كيف يطيب لك أن تسجن من كان في خدمتك، وهو الآن يثني عليك؟

<sup>1</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص701.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص716.

<sup>3</sup> تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، مرجع سابق، ص388.  
\* الذبالة: الفتيلة.

<sup>4</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص703.

وفي قوله: «....فَذَلِكَ بِيَدِهِ، وَهَيْنٌ عَلَيْهِ»<sup>1</sup>، معنى ذلك أن ابن جهور حر في حكمه يصرفه كيفما يشاء، وهي كناية على القدرة والاستيلاء، وهذا ما يسميه أهل البديع بالتمثيل.

من خلال المرور بين مكونات استراتيجية الإقناع، تستخلص النتائج من وجهتين:

### أولاً: من وجهة النص:

أن النص -بمعنى الرسالة- قد وظفت فيه آليات وأدوات لغوية وبلاغية كثيرة، ما تم استخراجها وما بقي في سطورها وأبياتها.

قد يجد القارئ مثلاً واحداً من الأمثلة المختارة يشمل على أكثر من آلية وأداة، غير أنه تم فصلها لتعم الفائدة. وقد بقيت في نماذج أخرى مجتمعة لتشابه وظيفتها البلاغية مثلاً، كالجناس.

استعمل في الرسالة أفعالا لغوية في غير محلها الأصلي، إما لتقوية الحجة، أو لتكون هي الحجة في ذاتها. كالاستفهام في قوله: «وَهَلْ لِبَسِ الصَّبَاحِ إِلَّا بُرْدًا طَرَزَتْهُ بِفَضَائِلِكَ؟»، واسْتَمَلَى الرَّيِّعُ إِلَّا ثَنَاءً مَلَأَتْهُ مِنْ مَحَاسِنِكَ؟»<sup>2</sup>.

أكثر من استعمال الكنايات والاستعارات للدلالة على سمو أدبه من جهة، ولأنها أبلغ من التعبير الحقيقي كقوله: «بَلْ وَجَدْتُ آجَرًا وَجِصًّا فَبَنَيْتُ، وَمَكَانَ الْقَوْلِ ذَا سَعَةٍ فَقُلْتُ»<sup>3</sup>.

التجأ إلى توظيف الأدلة الجاهزة بكثرة بغية تدعيم سلطة الخطاب والإقناع.

<sup>1</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص 715.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص 701.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص 702.

## ثانيا: من وجهة الشاعر

بدا الشاعر مبالغا في خطابه لإقناع ابن جهور؛ ففي كل مرة يتسلسل فيها القارئ في قراءة خبايا الرسالة يكتشف أن الشاعر يضمّر شيئا ويظهر آخر، كقوله مثلا: «.....وَأَسْتَأْنِفُ التَّأْدِبَ بِأَدَبِكَ»<sup>1</sup>، معنى ذلك أنني تبت عما بدر مني من قبل، وأن طريقي منذ اللحظة هو طريقك، ووجهتي هي وجهتك، وكأنني به يريد ألا يظهر الوجه الحقيقي المخفي، لاسيما في قوله: «وَحِينَ أَشْفَقُ مِنْ أَنْ يَعْطِفَكَ اسْتِعْطَافُهُ، وَيَمِيلَ بِنَفْسِكَ إِِلَاطَافُهُ»<sup>2</sup>. فقد وصف أهل البلاغة والبدیع بأنه الإسجال بعد المغالطة، لأنه استطاع أن يخدعه فيما تقدم من الكلام، ثم أسجل عليه<sup>3</sup>.

استخدم الشاعر أدوات لغوية وتلاعب بها، فأخرجها عن أصلها، وأوضعها موضعا مغايرا تماما كقوله: «فَاسْتَحْسَنَ الْعَائِدَةَ مِنْهُ، وَاعْتَدَّ بِالْفَائِدَةِ لَهُ»<sup>4</sup>، فهذا الكلام كما شرحه الصفدي: «أنه أخرجه مخرج التوكيد لاستعطاف ابن جهور، وميل نفسه إلى هذا النظم وقبوله له.... وهذا إنما هو في الأصل دعاء، والدعاء طلب....»<sup>5</sup>.

أن ابن زيدون كان متمكنا من سلطته اللغوية، فكان متحكما في سيرورة سياق الخطاب؛ يتماشى معه في كل فتراته، يخفض من نبرة الخطاب عند الاعتذار ويزيد فيها عند التحدي، واحسن استعمال الحجج.

<sup>1</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص714.

<sup>2</sup> تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، مرجع سابق، ص387.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص نفسها.

<sup>4</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص716.

<sup>5</sup> تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، مرجع سابق، ص388.

الخاتمة

## الخاتمة

أعطت الدراسة التحليلية للرسالة الجدية لابن زيدون وفق المقاربة التداولية فرصة وهامشا للبحث في مضمونها ومضمون المنهج المتبع في تحليلها، وخلصت الدراسة إلى النتائج التالية:

أن البيئة -بمفهومها الشامل- عامل مهم في التأثير على إبداعات الكتاب والأدباء، وابن زيدون قد حباه الله ببيئات ثرية أحاطت به من كل جوانبه، فهذه الأندلس الغنية بثراها وثراتها، وهذه قرطبة الثرية بجامعتها وعلمائها وأدبائها وفقهائها، وهذه الأسرة الصغيرة المشهورة بالعلم والأدب والفضائل، كانت له نعم المؤثر

أن ابن زيدون هو أحد ثمرات امتزاج هذه البيئات، تمخضت في بوتقة واحدة فأنشأت شاعرا وأديبا وقلما ما أنجب عصره مثله -بشهادة معاصريه- ولاسيما في علو شخصه وسمو أدبه وجودة كلامه وبيانته.

أن ابن زيدون قد اغتر بنفسه وعلمه، وكذلك بقربه من حكام قرطبة الذين قلدوه منصبا -ذو الوزارتين- ولم يأبه لما يحاك له من وراء ظهره، حتى استطاع حساده أن يوقعوا بينه وبين ابن جهور، فسجن بتهمة التآمر على الدولة والحكم والاستيلاء على العقار بغير وجه حق.

أن الشاعر -ومن البديهي- أن يسارع لشرح الأمر وتبيان مكر الحساد به والدفاع عن شخصه وتقديم براءته، فكتب لابن جهور الرسالة الجدية يستعطفه فيها ويتوسل إليه بأنه بريء.

أن هذه الرسالة قد اشتملت على أدوات ووسائل لغوية تخيرها الشاعر وانتقاها خصيصا ليبلغ مراده من وراء كتابته لهذه الرسالة.

أن المنهج التداولي يبحث في توظيف هذه الوسائل والآليات ضمن استراتيجيات أربع ذات معايير متباينة، وهي التضامنية والتوجيهية ذات المعيار الاجتماعي، الاستراتيجية التلميحية ذات المعيار اللغوي، والاستراتيجية الإقناعية ذات معيار الهدف.

أن مفهوم الاستراتيجية قديم، وهو مستمد من الخطط الحربية للجيش بالدرجة الأولى، غير أنه تسرب إلى باقي المجالات الحياتية، ولا يزال محافظا على تلك السمة الراقية التي اكتسبها، فقد صار ينسب إلى المجال الذي يستخدمه، كأن يقال: الاستراتيجية المالية، أو الاستراتيجية التربوية، أو استراتيجيات الخطاب.

أن مفهوم الاستراتيجية كان معروفا عند القدماء بالممارسة فحسب، دون تنظير، وقد وظفوه في الأداءات النقدية والأدبية، كالصناعة الشعرية والخطابية، وحددوا له اتجاهاته ووسائله وأهدافه.

أن الزمان والمكان قد غيرا وطورا من مفهوم استراتيجية الخطاب، ليتضمن فيما بعد مجموعة من الحثيات اللغوية، والشروط الفنية التي ينبغي توافرها في عملية التخاطب بين المرسل والمتلقي، فانبثقت عن ذلك مجموعة من الاستراتيجيات.

أن استراتيجيات الخطاب قد صنفت بحسب معيارها الذي ارتكزت عليه كل استراتيجية لإيصال الخطاب، فالاستراتيجيتان التضامنية والتوجيهية قد اعتمدتا المعيار الاجتماعي، بينما اكتفت التلميحية بالمعيار اللغوي، وأما استراتيجية الإقناع فاعتمدت معيار الهدف.



أن هناك اتفاقاً على أن الخطاب كلام مرسل، سواء أكان مكتوباً أم مشافهة، وأن الكلام -كما هو معلوم- يمحض في الذهن، ويرتب، ثم يلفظ بحسب السياق المناسب ليحمل معنى يبلغ للآخر قصد الإفهام، وذلك ما تم تلخيصه في المعاجم في كلمة خطبة.

وهذا يتقارب في المعنى مع ما جاء به فلاسفة اليونان، بأنه مجموعة من العمليات الذهنية القائمة على قواعد مرتبة ترتيباً منطقياً، بمعنى أنه ناتج عن العقل ويقبله العقل، وذلك لا يختلف عما ذهبت إليه المدرسة الفرنسية، وفي مقدمتها فوكو، بأنه مجموعة متميزة من المنطوقات أو العبارات المتخيرة، والتي تؤدي وظيفة الإفهام وتوصل رسائل الخطاب.

أن خطاب ابن زيدون قد تركز داخل محورين كبيرين، فأما أولاهما فهو المحور المتعلق بالخطاب السياسي الذي تركز بالأساس في الرسائل التي بعثها إلى حكام إشبيلية وقرطبة، سواء أكان من منصبه كوزير أم من سجنه، فهو -أي الخطاب- موجه في عمومته إلى الحكام، أما ثانيهما فهو المحور المتعلق بالجانب العاطفي، والذي توزع بين ثلاث شخصيات أو أربع، لها الأثر الكبير في نفسيته، إذا اعتبر شعره الموجه في رثاء أمه المتوفاة على قلته، وأما الباقي فهو محصور بين أبي حزم بن جهور، ثم ابنه من بعده، ثم إلى ولادة بنت المستكفي.

وقد تركز مجهود الباحث في استخراج استراتيجيات الخطاب من المحور الثاني، وبالتحديد من الرسالة الجدية باعتبارها مدونة البحث، ولاحتوائها على الجانبين من أدبه: النثري والشعري. وقد خلصت مجهودات تطبيق آليات وأدوات الاستراتيجيات اللغوية على نماذج نثرية وشعرية من الرسالة الجدية إلى نتائج يمكن تلخيصها فيما يلي:

لهذه الاستراتيجية مسوغاتها الخاصة التي تتحكم في انتقائها دون سواها من الاستراتيجيات، فقد احترم الشاعر السياق المحيط به، وحافظ على لغة الخطاب التي تتماشى

مع هذا السياق. استعمل إشارات اغوية مطمئنة تتم عن صداقة وعلاقة وطيدة مع الأمير بالرغم مما هو فيه، فابن زيدون كان اجتماعيا ولم ينساق وراء غروره وشخصيته المتعالية. وظف الشاعر آليات لغوية كالنداء ليثبت للأمير أنه مازال قريبا منه، فالنداء هاهنا يعبر عن القرب من القلب، كما استعمل كلمات وعبارات التفخيم والتعظيم كي يرسم لكل منهما مرتبته الخاصة.

بالرغم من اعتمادها على السلطة في تسيير الخطاب، واستعمال الأمر والنهي والتبليغ المخصوص، فإن ابن زيدون كان يمتلك سلطة المتكلم ذي العلم الغزير واللسان الفصيح والمقام الرفيع، إلا أنه لم يستعمل ذلك كونه غير مناسب للمقام، وإن كان قد وظف الأمر، إلا غير من نكهته بمذاق التحضيض وإظهار النتائج الحسنة للأمير بعد التنفيذ.

لم يستعمل الشاعر التحذير وهو من صميم التوجيه، كونه لا يتناسب مع السياق، إلا أنه لجأ إلى الاستفهام ليحل محله. ويوجه في الآن ذاته ابن جهور إلى الإجابة عن أسئلته لا محالة. لم يستخدم النهي الذي هو من آليات التوجيه، لأن ذلك سيؤدي إلى إفساد العلاقة التي يحاول أن يبقي عليها، إلا أن ابن زيدون عوضا عن ذلك وظف آلية لغوية أخرى، وهي ذكره لعواقب الأمور، لينهي الأمير من جهة، وليذكره بمصيره ونتائج قراره فيما بعد.

أن ابن زيدون حاول من خلال سلطته اللغوية أن يوجه ابن جهور الوجهة التي يريد، وهي العفو عنه وإطلاق سراحه.

سمحت هذه الاستراتيجية التي تحققت آلياتها في الامثلة المختارة للشاعر أن يناور بخطابه، ويتهرب من مسؤولية الخطاب المباشر، وذلك لأجل ألا يستخدم ضده، كما سمح التلميح للشاعر بأن يمرر كذا خطاب في خطاب واحد من حيث القصد الذي يقصده، قريبا كان أم بعيدا.

وقد وظف ابن زيدون التلميح في رسالته لعلمه المسبق بأن الأمير سيفهم قصده حتماً، لأنه عاش معه مدة طويلة، ويفقه لغته وأساليبه، وذلك من صميم استراتيجية التلميح. وقد اعتمد الأديب أسلوب التلميح أيضاً احتراماً ومراعاة لخصوصية القرب بين الأمير وبينه، ومحافظة على قدر من الترفع عن المباشرة التي قد توقعه فيما لا يريد، كما استخدم في هذه الاستراتيجية الاستفهام في غير موضعه التقليدي، لقد وظفه للتحريض، وذلك طلباً للعفو منه. كما أن خوفه من الإذلال جعله يعتمد كثيراً على التلميح، وكأنه يريد إخفاء توصله وتنازله عن غروره بعبارات توصله إلى غرضه دونما أن يعرفها الآخرون، ولقد كانت لغة التأدب التي استعملها ابن زيدون تتم عن وعيه التام بما هو فيه، وأنه غير مستعد للمواجهة مع الأمير، لأن ذلك ليس في مصلحته.

بقي الاطلاع على مدى نجاح ابن زيدون في توظيف آليات الإقناع ليصل إلى الهدف الأسمى، وهو العفو عنه وإطلاق سراحه، ولقد وظف آليات بلاغية كثيرة، واستعان بالاستراتيجية التضامنية والتلميحية ليعزز حججه في هذه الاستراتيجية. ومن ثم استعمل أفعالا لغوية في غير محلها الأصلي، وذلك لتقوية حجته ولتكون هي الحجة في حد ذاتها؛ كالاستفهام مثلاً، وأكثر من استعمال الكنايات والاستعارات للدلالة على أن تعبيره سيبلغ عمق قلب الأمير.

لجأ إلى توظيف الأدلة الجاهزة، كالأمثال العربية القديمة، وقصص القرآن الكريم، ليقدم حججا ليس للأمير أن يفر منها. كما كان ابن زيدون متمكناً من أدواته اللغوية، حيث وظف عبارات الاستعطاف في أسلوب التوكيد.

بالرغم من الرسائل والأدوات والآليات اللغوية التي استعملها ابن زيدون، وبالرغم أيضاً من الاستعطاف والتوسل والتنازل الذي أبداه اتجاه الأمير، فإن ذلك يوحى بمدى تأثره

النفسي والعاطفي، ومدى عمق عاطفته. غير أن هذا كله لم يشفع له عند ابن جهور؛ فقرر الهروب من السجن والفرار إلى إشبيلية التي توفي بها سنة 441هـ.

وليس معنى هذا أن ابن زيدون لم يستطع إيصال رسائله بوضوح، وإنما هو التعنت الذي أبداه الأمير وأوصد أبوابه دونها.

وصل البحث إلى نهايته في هذه الزاوية فحسب، إلا أن البحث في الأدب الأندلسي لا يزال متسعاً اتساع تلك القرون الثمانية التي لبث الحكم الإسلامي فيها؛ فكل قرن يعتبر بحراً من العلوم والمعارف تحتاج إلى من يبحث فيها، ولذلك أحث كل من كانت له رغبة في دراسة الأدب القديم، أن يتجه صوب الأدب الأندلسي.

ولقد تحقق وجود استراتيجيات التداولية الأربع في الرسالة الجديدة لابن زيدون، بالرغم من حداثة المنهج وقدم النص.

أن استخدام الأدوات والآليات كان موزعاً بشكل تسلسلي من بداية الرسالة إلى نهايتها، ولقد ساعد التأثير النفسي والعاطفي الذي تعرض له الشاعر جراء الفتن والأزمات التي مر بها في أن يوظف في رسالته آليات وأدوات نابغة من عمق هذه العاطفة، كآليات البلاغية.

الملاحق

# الملحق الأول

## ترجمة لابن زيدون

- مولده ونشأته
- تتلمذه على شيوخه
- مكانته العلمية ومؤلفاته

## أولاً: مولده ونشأته

كتب لابن زيدون أن يعيش في عصر ملوك الطوائف، وهو العصر الذي شهدت الاندلس فيه ضعفاً سياسياً بسبب تحامل العصبية العنصرية عليها، منها ما كانت بين القبائل العربية، ومنها ما كانت بين الجنسيات المختلفة، ثم زادت المذاهب السياسية سوءاً على سوء، فمن جهة العلويين والعباسيين والأمويين، ومن جهة ثانية الصدامات الدينية ما بين اليهودية والمسيحية من ناحية، والإسلام من ناحية أخرى<sup>1</sup>.

هذا التناحر أدى إلى انقسام الدولة إلى أقاليم ينازع بعضها بعضاً، ومن بين هذه الأقاليم، قرطبة التي حكمها بنو جهور، وإشبيلية التي حكمها بنو عباد. إلا أن هذا الضعف وهذا الضعف وهذا الانحدار لم يمس الحركة العلمية والثقافية، «.... وقامت حركة ثقافية كبرى لترجمة الروائع العربية إلى اللغة اللاتينية، لغة العلم والأدب السائد بأوروبا في هذه العصور»<sup>2</sup>، مما جعلها مقصداً للطلاب وطالبي الحرف والطب من جميع دول أوروبا، ناهيك عن طبيعتها التي مازالت عذراء لم تمسها يد الحرب.

وغنى الأندلس في ظل الحكم الإسلامي لم يخف على أحد، وقد ملئت بواطن الكتب بأوصافها، من جبال خضراء، وأنها عذبة المياه، وشواطئ خلابة، وجنان بديعة المنظر، وازدهر كل شيء فيها؛ العلم والتجارة والعمل والسياحة....، مما انعكس على حياة الناس، لاسيما الفكرية والأدبية منها<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> ينظر، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، عبد الرحمن علي الحجي، دار العلم، ط2، دمشق، 1422هـ/1981م، ص326.

<sup>2</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، تح: علي عبد العظيم، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، (د ط)، (د ت)، جمهورية مصر العربية، ص13.

<sup>3</sup> ينظر، تاريخ الأندلس، المؤلف مجهول، تح: عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، ط1، لبنان، 2007م، ص42.

نمت فيها العلوم الدينية؛ فقرب الأمراء العلماء والفقهاء من مجالسهم، فكانوا أصحاب سلطة بعلمهم وبمقامهم عند الناس، حتى صاروا أصحاب اليد الطولى هناك، يرضون عن يشاؤون ويسخطون عن يشاؤون. «.... ويؤلبون العامة عليهم إذا أنسوا منهم انحرافا....»<sup>1</sup>، وفي المقابل برزت فئة الأدباء والشعراء الأفاضل، أمثال ابن زيدون وابن حزم صاحب كتاب "طوق الحمامة" وكتاب "الفصل في الملل والأهواء والنحل".

ومما ينبغي الإشارة إليه أن الأندلسيين كانوا يتلقون التوجيه من إخوانهم المشاركة، فكانت الزيارات تكاد لا تنقطع، إلى أن اعتمدوا على أنفسهم في عصر الطوائف<sup>2</sup>.

في هذه الظروف خرج إلى الوجود أبو الوليد بن زيدون، ففتح عينيه على بيئات جد مناسبة للتعليم والتفقه، للتربية، للإبداع الشعري والنثري وللسفر. لكن قبل الشروع في سرد حياة ابن زيدون من مولده ونشأته، لا بأس من الإشارة إلى أسرته؛ بيئته الصغيرة التي احتضنته وشب بين أعضائها. «ينتمي الشاعر من جهة أبيه إلى بني مخزوم، فهو أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي»<sup>3</sup>. ويعد هذا الأصل من أجود الأصول القرشية؛ فمنهم خالد بن الوليد.

«ولد ابن زيدون سنة ثلاثمائة وأربع وتسعين هجرية الموافق لـ ألف وثلاثة ميلادية بالبرصافة من أرياض قرطبة، وهي ضاحية متصلة بقرطبة أنشأها عبد الرحمن الداخل وسمّاها البرصافة تشبيها لها ببرصافة جده هشام»<sup>4</sup>. يقول عنها ابن زيدون واصفا إياها بعدما شدته إلى جمالها:

<sup>1</sup> تاريخ الأندلس، مصدر سابق، ص16.

<sup>2</sup> ينظر، المصدر نفسه، ص18.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص21.

<sup>4</sup> المصدر نفسه، ص23.



وَيَوْمٍ بِجَرَفِ الرِّصَافَةِ مُبْهِجٍ      مَرَرْنَا بِرَوْضِ الْأَخْوَانِ الْمُدْبِجِ  
وَقَابِلْنَا فِيهِ نَسِيمُ الْبَنَفْسِجِ      وَلَا حَ لَنَا وَرْدٌ نَكْدٌ مُضَرَّجٌ<sup>1</sup>

فاجتمعت بذلك لابن زيدون إذن بيئتان شريفتان طيبتان، أصل قرشي أصيل، وبلد حباها الله بكل ما يتمناه المرء في دنياه، لكن كيف كانت نشأته في أسرته؟

نشأ ابن زيدون وسط بيت أهلها فقهاء، كأبيه وجده لأمه، وإذا كان أعيان البيت أهل فقه، فمعنى ذلك مرتبط بالاستقامة على الحدود الشرعية، وإذا أضيف للفقه القضاء، فذلك أكمل للشخصية التي تتربى على حدود الله، وكان أبوه ثريا يملك أموالا وضياعا<sup>2</sup>.

وهذا بدوره له تأثير مزدوج في شخصية ابن زيدون، فمن جهة كفاه على مد يده لغيره وأغناه عن طلب مال الأمراء، ومن جهة أخرى لا يخاف عليه من التردى والجنوح عما تربى عليه، إلا أن أباه قد تركه من بعده أمانة عند صديقه أبي العباس أحمد بن محمد بن ذكوان قاضي القضاة بقرطبة، وثلة من العلماء والفقهاء من أصحابه، وتخير له نخبة من الأدباء والمتففين<sup>3</sup>.

## ثانيا: تتلمذه على شيوخه

لقد كان أبوه الفقيه أول شيخ وأستاذ لابن زيدون، ثم تكفل به من بعده ابن ذكوان المتفنف في ضروب العلم، العارف باللغة والأدب، وهو أول أستاذ بعد أبيه<sup>4</sup>. وهذه بيئة أخرى قد ساقها، بل وهبها الله لابن زيدون لتكتمل أركان شخصيته من الناحيتين الأدبية والشرعية،

<sup>1</sup> تاريخ الأندلس، مصدر سابق، ص 23.

<sup>2</sup> ينظر، نوابغ الفكر العربي: ابن زيدون، شوقي ضيف، دار المعارف، ط 1، (دت)، ص 15.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص نفسها.

<sup>4</sup> ينظر، المرجع نفسه، ص نفسها.

ولقد استمرت مصاحبة الشاعر لشيخه ابن ذكوان أبي العباس زهاء ثمان سنين، ومن «أساتذته المهمين أبو بكر مسلم بن أحمد، وكان نحوياً أديباً متقدماً في علم العربية واللغة ورواية الشعر والأدب»<sup>1</sup>، وقد تأثر ابن زيدون بهذا الشيخ وترك في نفسه انعكاساً طيباً، لاسيما من حيث رواية الشعر.

انكب ابن زيدون على طلب العلم برغم الظروف الصعبة التي أحيطت بقرطبة، حيث تعرض الكثير من العلماء إلى التوقيف والسجن والتعذيب، أما ابن زيدون فقد «حفظ القرآن الكريم ودرس أسرار اللغة وتوفر على العلوم الدينية، وقرأ أدب الأقدمين وثقف نفسه ثقافة عقلية فلسفية، وهضم أخبار العرب وأيامهم وأمثالهم»<sup>2</sup>، ويعترف ابن زيدون بفضل أصحاب العلم عليه، حيث وصفهم في هذين البيتين بقوله:

وَجَدَنِي عِلْمٌ تَوَلَّتْ فُنُونُهُ      كَمَا يَتَوَالَى فِي النَّظَامِ سَخَابُ\*  
وَرِدْتُ مَعِينَ الطَّبْعِ إِذْ ذِيدَ دُونَهُ      أَنَاسُ لَهُمْ فِي حَجَرَتِهِ لَوَابُ<sup>3</sup>

إلا أن ابن زيدون لم يكتف بالتعلم على يد الشيوخ الثلاثة الأوائل، بل أراد أن يغرف من مختلف المشارب؛ فمن الزهاد كأبي الوليد يونس بن عبد الله بن المغيث المعروف بابن الصفار، وأبي الطرف عبد الرحمن بن مروان الأنصاري القنازعي. ومع انتهاء الفتنة يكون ابن زيدون قد تشبع علماً، ونهل من أنواعه، وتشرب أخلاقاً وأدباً من أصحابها، «وقد امتلأ وطابه علماً وتفتقت مواهبه شعراً»<sup>4</sup>. ومن ثم صار ابن زيدون جاهزاً لأن يدخل معترك

<sup>1</sup> نوايغ الفكر العربي: ابن زيدون، مرجع سابق، ص 16.

<sup>2</sup> المغرب والأندلس، مصطفى الشكعة، طبعة بيروت، 1987، ص 387، نقلاً عن عصر ابن زيدون، جمعة شيخة، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، (دط)، 2004، ص 209.

\* السَخَابُ: العقد، ذيد دونه: منع عنه، اللوَاب، العطش، نَجَدَنِي: حَنَكَنِي

<sup>3</sup> تاريخ الأندلس، مصدر سابق، ص 25.

<sup>4</sup> المغرب والأندلس، مرجع سابق، ص 211.

السياسة، فهو أقدر ما يكون عليها، ويزاحم أهل العلم، فهو أهل له، وبياري أهل النثر والشعر فهو صاحبه.

### ثالثاً: مكانته العلمية ومؤلفاته

لم يكن الأمر يسيراً على ابن زيدون ليعتلي هذا المقام من العلم والأدب، لاسيما مع التربية والتوجيه الصارمين من قبل والده قبل وفاته، ثم من أساتذته وشيوخه، ولعل ذلك ما قوى عزيمته ووسع في حلمه، ثم لم يكن الأمر يسيراً عليه من جهة أخرى، لما حرم متعة التلذذ بحياة الشباب مع أقرانه في الأندلس بصفة عامة وفي قرطبة بصفة خاصة، ومن الممكن أيضاً أن يكون ذلك سبباً لتفتق موهبته بعد الكبت؛ فقال شعراً غزالياً بعاطفة الشباب وهو كهل.

#### I. مكانته العلمية

«لقد اجتمع لأبي الوليد بن زيدون فضل التربع على قمة الشعر، ومزية تملك ذروة النثر»<sup>1</sup>، والقول ذاته يمكن أن يقال على نثره المتضمن في رسائله، مما أهله لأن يكون كاتباً أدبياً وشاعراً، وقد اعتنى الكثير من المترجمين بحياة ابن زيدون الأدبية، فكانوا يقولون أن كتبه كانت ترسل عبر الأندلس، ولاسيما من شرقها، يمجّد صاحبها ويثني عليه كل من قرأها<sup>2</sup>، فالمطلع على نتاج ابن زيدون يدرك للتو مدى تعلقه بمنهج الأدباء القادم من الشرق، «فقد توفر عليه دراسة وحفظاً وفهماً ومن ثم تأثر به وحذا حذوه ورسم على نهجه ونسج

<sup>1</sup> المغرب والأندلس آفاق إسلامية وحضارة إنسانية ومباحث أدبية، مصطفى الشكعة، دار الكتب الإسلامية، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، ط1، 1987م، ص384.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص388.

على منواله....<sup>1</sup>، وذلك ما يلاحظ جليا في اقتباساته التي يزين بها خطابه، فهو يعتمد كثيرا على أمثال العرب القديمة وحكمهم وشعرهم.

وقد وصف ابن زيدون من قبل أدباء وعلماء سبقوه بأوصاف رفعت من مكانته العلمية؛ فهذا عبد الواحد المراكشي صاحب كتاب "المعجب في تلخيص أخبار المغرب" يقول عنه: «....أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن زيدون، ذو الأدب البارع والشعر الرائع، أحد شعراء الأندلس المجيدين وفحولها المبرزين....»<sup>2</sup>.

وقد لقبه بعضهم ببحتري زمانه، ويتبع هذا الرأي ابن بسام صاحب الذخيرة بقوله: «....وصدقوا، لأنه هذا حذو الوليد، إلا أن أبا الوليد في بعض قصائده كابن حميد سعيد....»<sup>3</sup>، ومما جادت به قريحته قوله:

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي تَدِيرُهُ      أَضْحَى لِمَمْلَكَةِ الزَّمَانِ مَلَاكَا  
أَعْرِضْ عَنِ الْخَطَرَاتِ إِنَّكَ إِن تَشَأْ      تَكُنِ النُّجُومُ أَسِنَّةً لِقَنَا كَا<sup>4</sup>

ولا شك أن أقوال وآراء العلماء في شخص ابن زيدون ليس من باب الإطراء، لأنه لو لم يصل إلى تلك المنزلة لما كثرت الترجمات حوله، ولما أعجب به المعجبون، ولما حفظ أشعاره الحافظون، ولما حتى حسده الحاسدون.

<sup>1</sup> المغرب والأندلس آفاق إسلامية وحضارة إنسانية ومباحث أدبية، مرجع سابق، ص 389.

<sup>2</sup> المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الوهاب المراكشي، تح: محمد سعيد العريان، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، (دط)، (دت)، ص 162.

<sup>3</sup> الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، الشنتريني أبو الحسن علي بن بسام، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، (دط)، 1417هـ/1997م، ص 379.

<sup>4</sup> المرجع نفسه، ص نفسها.

فتأثره إذن بأدباء المشرق يلتسمه القارئ بوضوح من خلال رسائله السبع، وهي كالاتي: الرسالة الهزلية، الرسالة الجدية، الرسالة البكرية، الرسالة المظفرية، الرسالة العامرية، الرسالة العبادية الأولى، الرسالة العبادية الثانية.

## II. مؤلفاته

أبدع ابن زيدون في كتاباته، وأجمع الأدباء سواء ممن عاصروه أو ممن درسوا أدبه على جودة منتوجه الأدبي الذي امتزج بين الشعر والنثر.

### 1. الديوان

ترك الشاعر ابن زيدون ديوانا شعريا متنوع الأغراض، كالنسيب والمدح والثناء والهجاء، جمعه عبد العظيم وحققه في ثمانمائة وست عشرة صفحة، بما في ذلك الرسائل السبع، وعن الصعوبات التي تلقاها المحقق في جمعه وتحقيقه يقول عمر الدسوقي في تصديره لهذا الديوان: «....حيث رجع إلى مئات الدواوين وأسفار التاريخ وكتب الحكم والأمثال، وبحث ونقب حتى اهتدى إلى النص الذي اقتبس منه هذا الشاعر»<sup>1</sup>. وبالعودة إلى الأغراض الشعرية التي وردت في الديوان فقد ابتدئ بـ:

#### أ النسيب

تفتحت عينا الشاعر على بيئة طبيعية وبشرية ألهمته لأن يبدع في هذا الغرض، حيث غمرته نشوة القرب وبلغ أمله فقال:

أَحِبَّنَا، إِنِّي بَلَغْتُ مُؤَمِّلِي      وَسَاعَدَنِي دَهْرِي وَوَاصَلَنِي حَيِّي

<sup>1</sup> تاريخ الأندلس، مصدر سابق، ص5.

وَجَاءَ يَهْنِيَنِ الْبَشِيرُ بِقُرْبِهِ فَأَعْطَيْتُهُ نَفْسِي، وَزِدْتُ لَهُ قَلْبِي<sup>1</sup>

تهيأت الظروف للشاعر لأن يطلق العنان لشاعريته وذكرياته حيث يقول:

أَذْكُرْنِي سَالَفَ الْعَيْشِ الَّذِي طَابَا يَا لَيْتَ غَائِبَ ذَاكَ الْعَهْدِ تَدَابَا  
إِذْ نَحْنُ فِي رَوْضَةٍ - لِلْوَصْلِ - نَعْمَهَا مِنْ السَّرُورِ غَمَامٌ فَوْقَهَا صَابَا<sup>2</sup>

لم يدع الشاعر -في هذا الغرض- لحظة تفوته دون أن يقول فيها شعرا واصفا حاله وشوقه واشتياقه وذكرياته، ووداعه وآماله وآلامه.

## ب الإخوانيات

تدور قصائده في الإخوانيات حول علاقاته مع أصدقائه، والرسائل التي كانوا يتبادلونها فيما بينهم، حيث يقول في غرض الطارحات بعنوان "حسن العقاب":

قُلْ لِأَبِي حَفْصٍ وَلَمْ تَكْذِبْ يَا قَرَّ الدِّيَّانِ وَالْمَوْكِبِ  
مَا لِأَبِي صَفْوَانَ مَأْلُوفَنَا أَبْرَقَ فِي الْأَلْفَةِ عَنْ خُلْبٍ<sup>3</sup>

وتحت عنوان "دعابة بريئة" دأب الشاعر صديقه الوزير أبا العباس بن حاتم بن ذكوان بهذه الأبيات، وكان ابن جهور قد أمر بإراقة الخمر ومنع شربها:

لَسْتُ مِنْ بَابَةِ الْمُلُوكِ أَبَا الْعَبَّاسِ دَعُهُمْ، فَشَانَهُمْ غَيْرُ شَانِكَ  
مَا جَزَاءُ الْوَزِيرِ مِنْكَ - إِذَا اخْتَصَّكَ - أَنْ تَسْتَمِرَّ فِي إِدْمَانِكَ<sup>4</sup>

<sup>1</sup> تاريخ الأندلس، مصدر سابق، ص 120.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص 123.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص 198.

<sup>4</sup> المصدر نفسه، ص 199.

## ج الوصف

أما في غرض الوصف فقد امتزج بالنسيب، فوصف الطبيعة والمرأة معا فقال في وصف هدية أهداها للأمير أبي الوليد بن جهور وقد مزج فيها بين الوصف الحسي والمعنوي:

أَتَتْكَ بِلَوْنِ الْحَبِيبِ الْخَجَلُ      تُخَالِطُ لَوْنَ الْحَبِّ الْوَجَلَ  
ثَمَّارُ تَضَمَّنَ إِدْرَاكُهَا      هَوَاءٌ أَحَاطَ بِهَا مُعْتَدِلُ  
تَأْتِي لِإِلْطَافِ تَدْرِيجِهَا      فَمِنْ حَرِّ شَمْسٍ إِلَى بَرْدِ ظِلِّ  
إِلَى أَنْ تَنَاهَتْ شِفَاءُ الْعَلِيلِ      وَأَنْسَ الْمَشُوقَ وَلَهُوَ الْغَزَلُ<sup>1</sup>

وفي عهد أبي الوليد بن جهور قال الشاعر هذه الأبيات يصف فيها إعراض الأمير عنه بعد إقباله، وذلك من باب الشكوى والعتاب:

بَنَيْتَ فَلَا تَهْدِمُ، وَرِسْتَ فَلَا تَبْرِي      وَأَمْرَضْتَ حُسَادِي، وَحَاشَاكَ أَنْ تَبْرِي  
أَرَى نَبْوَةً لَمْ أَدْرِ سِرَّ اعْتِرَاضِهَا      وَقَدْ كَانَ يَجْلُو عَارِضُ الْهَمِّ أَنْ أَدْرِ  
جَفَاءً هُوَ اللَّيْلُ أَذْلَهُمْ ظِلَامُهُ      فَلَا كَوَكَبٌ لِلْعُذْرِ فِي أَفْقِهِ يَسْرِي<sup>2</sup>

لم يقف الشاعر في شعره عند غرض الوصف؛ فبحكم حياته كوزير وسفير فقد كانت له جولات شعرية مدح فيها الملوك الذين عاش معهم، فقال في أبي حزم بن جهور بقرطبة من باب الثناء والعتاب:

<sup>1</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص 243.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص 295.

هَذَا الصَّبَاحُ عَلَى سُرَاكِ رَقِيبَا      فَصَلِّي بِفَرْعِكَ لَيْلَكَ الْغَرِيبَا  
وَلَدَيْكَ - أَمْثَالُ النُّجُومِ - قَلَائِدُ      أَلْفَتْ سَمَاءَكَ لَبَّةً\* وَتَرْتِيبَا<sup>1</sup>

ويقول في موضع آخر في مدحه للجهاورة:

إِنَّ الْجَهَّاورَةَ الْمُلوِكَ تَبَوَّؤُوا      شَرَفًا جَرَى مَعَهُ السَّمَاءُ جَنِيبَا  
عَقْدُ تَأْلَفٍ فِي نِظَامِ رِيَّاسَةٍ      نَسَقَ اللَّائِي مُنْجِبًا وَنَجِيبَا  
يَغْشَى التَّجَارِبَ كَهَلْهِمْ مُسْتَغْنِيَا      بِقَرِيحَةٍ هِيَ حَسْبُهُ تَجْرِيَا<sup>2</sup>

أما في سياق الشكر والثناء فيقول في أبي الوليد بن جهور:

هَلْ عَهْدَنَا الشَّمْسُ تَعْتَادُ الْكَلَلَ\*؟      أَمْ شَهِدْنَا الْبَدْرَ يَحْتَابُ الْحُلَّ؟  
أَمْ قَضِيبُ الْبَانِ يَغْنِيهِ الْهُوَى؟      أَمْ غَزَالُ الْفَقْرِ يُصْبِيهِ الْغَزْلُ؟  
خَرَقَ الْعَادَاتِ مُبْدِي صُورَةٍ      حَشَدَ الْحُسْنِ عَلَيْهَا فَاحْتَفَلَ<sup>3</sup>

## د الرثاء

اقتصر رثاء الشاعر على المقربين منه، كأبي الحزم بن جهور وزوجه، وكذلك صديقه

ابن ذكوان الذي يقول فيه:

أَعْجَبَ لِحَالِ السَّرْوِ كَيْفَ تُحَالُ      وَلَدَوَلَةِ الْعَلِيَاءِ كَيْفَ تُزَالُ  
لَا تَفْسَحَنَّ لِلنَّفْسِ فِي شَأْوِ الْمُنَى      إِنَّ اغْتِرَارَكَ بِالْمُنَى لَضَلَالُ

\* اللَّبَّة: النحر أو موضع القلادة.

<sup>1</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص 324.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص 328.

\* الكلال جمع كلة: نسيج يسمح بدخول الهواء ويمنع دخول الحشرات.

<sup>3</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص 338.



عزى الشاعر الأمير أبا الوليد بن جهور في وفاة أمه قائلاً:

هُوَ الدَّهْرُ! فَاصْبِرْ لِلَّذِي أَحْدَثَ الدَّهْرُ      فَمَنْ شِمِ الْأَبْرَارِ - فِي مِثْلِهَا - الصَّبْرُ  
سَتَصْبِرُ صَبْرَ الْيَأْسِ أَوْ صَبْرَ حَسْبَةِ      فَلَا تَرْضَ بِالصَّبْرِ الَّذِي مَعَهُ الْوِزْرُ  
حَذَارِكَ مَنْ أَنْ يَعْقِبَ الرِّزْءُ فِتْنَةً      يَضِيقُ لَهَا - عَنْ مِثْلِ أَخْلَاقِكَ - الْعُذْرُ<sup>1</sup>

## ه الهجاء

يقول محقق الديوان عن شعر ابن زيدون في الهجاء بأنه مقبول إذا ما قورن بهجاء معاصريه، وأنه كان ينذر قبل أن يهجم<sup>2</sup>، وفي تحذيره وتوعده لابن عبدوس؛ منافسه على ولادة يقول:

حَذَارِ حَذَارِ! فَإِنَّ الْكَرِيمَ      إِذَا سَمَّ خَسَفًا - أَبَى فَاْمْتَعَضَ  
فَإِنَّ سَكُونَ الشَّجَاعِ النَّهْ      سَ لَيْسَ بِمَانِعِهِ أَنْ يَعِضَ  
وَإِنَّ الْكَوَاكِبَ لَا تُسْتَدَلُّ      وَإِنَّ الْمَقَادِيرَ لَا تُعْتَرَضُ<sup>3</sup>

ومن سجنه بعث لابن جهور هذين البيتين:

بَنِي جَهْرٍ، أَحْرَقْتُمْ بِجَفَائِكُمْ      ضَمِيرِي، فَمَا بَالُ الْمَدَائِحِ تَعْبَقُ  
تَعْدُونَنِي كَالْمَنْدَلِ الرُّطْبِ، إِنَّمَا      تَطِيبُ لَكُمْ أَنْفَاسُهُ حِينَ يُحْرِقُ<sup>4</sup>

ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص 539.

<sup>2</sup> ينظر، المصدر نفسه، ص 577.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص 583.

<sup>4</sup> المصدر نفسه، ص 590.

## 2. الرسائل

### أ الرسائل الهزلية

كما هو معلوم فإن ابن عبدوس كان ينافس ابن زيدون على ولادة بنت المستكفي، ولما علم ابن زيدون بالأمر كتب هذه الرسالة على لسان ولادة في الحب والسياسة رداً على ابن عبدوس في محاولته استمالتها إليه عن طريق امرأة أرسلها إليها، فرجعت المرأة مع الرسالة -رسالة ابن زيدون الهزلية- حيث قال فيها:

«أَيُّهَا الْمَصَابُ بِعَقْلِهِ، الْمَوْرُطُ بِجَهْلِهِ، الْبَيْنُ سَقَطُهُ، الْفَاحِشُ غَلَطُهُ، الْعَائِرُ فِي ذَيْلِ اغْتِرَارِهِ\*، الْأَعْمَى عَنْ شَمْسِ نَهَارِهِ، السَّاقِطُ سُقُوطَ الذُّبَابِ عَلَى الشَّرَابِ، الْمُتَهَافِتُ تَهَافُتَ الْفَرَاشِ إِلَى الشَّهَابِ....، وَإِنَّكَ رَأْسَتَنِي مُسْتَهْدِيًّا -مِنْ صَلَقٍ- مَا صَفَرَتْ مِنْهُ أَيْدِي أَمْثَالِكَ، مُتَصَدِّيًا -مِنْ خَلْتِي- لِمَا قُرِعَتْ دُونَهُ أَنْوْفُ أَشْكَالِكَ....»<sup>1</sup>. وكانت نتيجة هذه الرسالة أن ابن

عبدوس أمسك عن التعرض لولادة، ومما جاء فيها من شعره قوله:

عَلَى أَنَّهَا الْأَيَّامُ قَدْ صَرْنَ كُلَّهَا عَجَائِبُ، حَتَّى لَيْسَ فِيهَا عَجَائِبُ<sup>2</sup>

وقد شغلت هذه الرسالة مائة وثلاثاً وأربعين صفحة من الديوان مصحوبة بشرحها، وبعض التعليقات عليها أوردتها المؤلف لعلماء عاصروا ابن زيدون كابن بسام وابن نباتة

### ب الرسالة الجدية

كتب هذه الرسالة من سجنه يستعطفه فيها أن يخلي سبيله، لأنه لا يتحمل شماتة الشامتين به، ولا استهزاء الحاقدين عليه، ومما جاء فيها:

\* ذيل الاغترار: استعارة وظفها ليسخر منه، فكأنه كان يسحب ذيله عجباً فتعثر به وسقط.

<sup>1</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص 635.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص 654.

«يا مولاي وسيدي الذي ودادي له، اعتمادي عليه، واعتدادي به، وامتدادي منه، ومن ابقاه الله ماضي حد العزم، واري زند الأمل، ثابت عهد النعمة، إن سلبتني -أعزك الله- لباس نعمائك، وعطلتني من حلي إيناسك، وأضمأتني إلى برود إسعافك»<sup>1</sup>.

خص ابن زيدون ابن جهور بعبارات التبجيل والتفخيم، لأنه يدرك المقام الذي هو فيه، وما يجب عليه فعله، والقرار أولا وأخيرا بيد الأمير، ومن ثم فهو مدرك لحساسية الموقف، وطبيعة ونفسية الشخص الذي يخاطبه، فقد مكث معه ما يقارب العشرين سنة، ولذلك وجب عليه أن ينزل الآخرين منازلهم التي يستحقون ولو مرأء، ومن الأبيات الشعرية التي تضمنتها هذه الرسالة قوله:

كُلُّ الْمَصَائِبِ قَدْ تَمَّ عَلَى الْفَتَى وَتَهَوُّنُ غَيْرِ شِمَاتَةِ الْحُسَّادِ<sup>2</sup>

وقد كان ابن زيدون مستعدا لكل شيء من أجل ألا تنقطع علاقته بابن جهور، حتى التنازل والاعتذار رغم غروره، إذ يقول:

فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِمًا فَلَيْقَسُ أَحْيَانًا عَلَى مَنْ يَرْحَمُ<sup>3</sup>

كل ذلك وهو لم يتعد حد الاستعطاف إلى التذمر مثلا.

<sup>1</sup> ديوان ابن زيدون رسائله أخباره شعر الملكين، شرح وضبط وتصنيف كامل كيلاني وعبد الرحمن خليفة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط1، 1351هـ/1932م، ص333.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص نفسها.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص 334.

## ج الرسالة البكرية

يتبع ابن زيدون في رسائله منهاجا خاصا، وهو مزجه بين النثر والشعر، وقد يتبع الرسالة بعد نهايتها بقصيدة، كما في رسالته هاته، الرسالة البكرية، والتي منها هذا النموذج، وقد بعثها لأستاذه أبي بكر مسلم بن أحمد بن أفلح النحوي:

«يَا سَيِّدِي الَّذِي كُنْتُ أَرَاهُ أَعْدُّ عَدْدِي لِأُبْدِي، وَأَخْصُ جَنِّي مِنْ زَمَنِي، وَمَنْ أَبْقَاهُ  
اللَّهُ فِي أَصْلَحِ الْأَحْوَالِ، وَأَفْسَحِ الْأَمَالِ. أَبْدَأُ مِنْ كِتَابِي إِلَيْكَ بِشَرْحِ الضَّرُورَةِ الْحَافِزَةِ إِلَى مَا  
صَنَعْتُ، إِذْ بَلَغَنِي أَنَّكَ صَدَرُ اللَّائِمِينَ لِي عَلَيْهِ، وَأَوَّلُ الْمُسْفِهِينَ لِرَأْيِي فِيهِ، وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ...»<sup>1</sup>.

من خلال خطابه هذا تبين أنه كان معاتبا أستاذه، وشاكيا لموقفه الذي أقدم عليه، وما تعبيره بعبارة "يا سيدي الذي كنت أراه" إلا دليل على عمق جرحه الذي لقيه وأصابه من أستاذه، ومما جاء في هذه الرسالة من الشعر ما يأتي:

|                               |                                     |
|-------------------------------|-------------------------------------|
| أَرَى النَّاسَ أَحْدُوثَةً    | فَكُونِي حَدِيثًا حَسَنًا           |
| كَأَنَّ لَمْ يَزَلْ مَا أَتَى | وَمَا قَدْ قُضِيَ لَمْ يَكُنْ       |
| إِذَا وَطَنُ رَابِنِي         | فَكُلَّ مَكَانٍ وَطَنٌ <sup>2</sup> |

والشاعر هنا يحدث نفسه ويحثها على أن تظهر بالمظهر اللائق أمام الناس.

## د الرسالة المظفرية

جاء في هامش كتاب "ديوان ابن زيدون رسائله أخباره وشعر الملكين" معلومات عن المظفر سيف الدولة أبي بكر بن الأفتس: "كان المظفر من أعظم ملوك الطوائف، وكان

<sup>1</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص719.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص738.

أحرص الناس -كما يقولون- على جمع علوم الأدب ونواد الأخبار وعيون التاريخ، وقد ألف كتابا كبيرا -في الأدب- في عشرة أجزاء ضخمة<sup>1</sup>، ومما جاء في الرسالة:

«لَمَّا لَبَسَ الْحَاجِبُ -أَعَزَّهُ اللَّهُ- رِدَاءَ الْمَجْدِ مُعَلِّمًا، وَحَمَلَ لَوَاءَ الْحَمْدِ مُعَلِّمًا، فَاسْتَطَارَ بَارِقُ نَفَرِهِ، وَاسْتَضَاءَ فَاتِحُ ذِكْرِهِ، وَشَهَرَتْ مُحَاسِنُهُ عَلَى كُلِّ لِسَانٍ، وَسَارَتْ مَآثِرُهُ مَسِيرَ الشَّمْسِ بِكُلِّ مَكَانٍ، لَمَّا سَوَّغَ مِنْ كَرَمِهِ، وَأَسْبَغَ مِنْ نِعَمِهِ، وَوَطَأَ -لِلْأَمَلِينَ- مِنْ أَكْثَافِهِ.....»<sup>2</sup>.

هذا الخطاب هو أقرب إلى المدح في الشعر منه في النثر، فلم يدع صفة -كما هو في الرسالة- إلا وصفه بها، وذلك لأجل التقرب، فابن زيدون -كما هو معلوم- يسعى للمنصب، ولم يصادف مرة أنه كان يمدح لأجل المال، ومن شعره في هذه الرسالة قوله:

|                                         |                                                  |
|-----------------------------------------|--------------------------------------------------|
| فَفِي نَاطِرِي عَنْ رَشَادِ عَمِي       | وَفِي أُذُنِي عَنْ مَلَامِ صَمِّ                 |
| قَضَيْتُ بِشَمَاسِي عَلَى الْعَازِلِينَ | شُمُوسُ مَكَلَّةٍ بِالظَّلَامِ                   |
| فَمَا سَقَمْتُ لَحَظَاتِ الْعُيُ        | نِ إِلَّا لَتَغْرِيَنِي بِالسَّقَمِ <sup>3</sup> |

وكعادته، لغة ذات عبارات راقية تنم عن خزان لغوي

<sup>1</sup> ديوان ابن زيدون رسائله أخباره شعر الملكين، مصدر سابق، ص 346.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص 348.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص 351.

## ه الرسالة العامرية\*

كتب ابن زيدون هذه الرسالة إلى ابن مسلمة في إشبيلية قبل أن يسافر إليها، ومما جاء فيها قوله:

«يَا سَيِّدِي وَأَرْفَعُ عَدَدِي، وَأَوَّلَ الذَّخَائِرِ فِي عَدَدِي، وَأَخْطَرَ عَلَقِي مَلَأْتُ مِنْ اقْتِنَائِهِ يَدِي، وَمَنْ أَبْقَاهُ اللَّهُ فِي عَيْشَةٍ بَارِدَةِ الظَّلَالِ، وَنِعْمَةٍ سَابِغَةِ الْأَذْلالِ، قَدْ تَقَاصَرَ الثَّنَاءُ عَلَيْكَ، وَتَوَالَى الْحَدِيثُ الْحَسَنُ عَنْكَ، حَتَّى حَلَّتْ مَحَلَّ الْأَمَانَةِ، وَكُنْتَ مَوْضِعَ تَقْلِيدِ الْوَطَنِ، وَثَبَاتِ الطَّوِيَّةِ، وَاللَّهُ يُمَتِّعَكَ بِمَا حَازَهُ لَكَ مِنَ الْخَيْرِ، وَوَفَّرَهُ عَلَيْكَ مِنْ طَيِّبِ الذِّكْرِ»<sup>1</sup>.

ومما يلاحظ على أسلوب ابن زيدون في بدايات رسائله -إذا استثنينا الرسالة الهزلية- فإنه متقارب متشابه في توظيف بعض العبارات بعينها، مثل: يا سيدي، عددي، أبقاه الله. وهذا يفسر مقدار تفخيمه لهؤلاء الأمراء. ومما جاء في الرسالة العامرية من شعر قوله:

فَإِنْ أَغْشَى قَوْمًا بَعْدَهُ أَوْ أَزُورُهُمْ فَكَالَوْحَشِ يَدْنِيهَا مِنَ الْأَنْسِ الْمَحَلِّ<sup>2</sup>

ومما يلاحظ أيضا على مدح ابن زيدون في رسائله وما تخللها من شعر أنه يبرز قوة كل أمير، ويحاول إظهارها على من سواه كقوله مثلا "وكبت أعداءه".

## و الرسالة العبادية الأولى

كتب الشاعر هذه الرسالة إلى المعتضد بن عباد عقب الرسالة التي خلت، وحملت اسم العبادية نسبة إلى بن عباد، ومما يقول فيها:

\* سميت بالعامرية نسبة إلى الوزير أبي عامر.

<sup>1</sup> ديوان ابن زيدون رسائله أخباره وشعر الملكين، مصدر سابق، ص355.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص356.

«أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ الْحَاجِبِ نَحْرَ الدَّوْلَةِ مَوْلَايَ وَسَيِّدِي، وَتَوَلَّى الْمَنَاقِبَ الْجَلِيلَةَ، وَالضَّرَائِبَ النَّفِيسَةَ، فِي أَكْمَلِ مَا تَكْفُلُ لَهُ بِهِ مِنْ عُلُوِّ الْقَدْرِ، وَنَفَازِ الْأَمْرِ، وَخَصَّةٍ مِنَ النِّعَمِ بِأَسْبَغِهَا سِرْبَالًا<sup>1</sup>، وَأَبْرَدِهَا ظِلَالًا، وَأَحْمَدَهَا مَالًا<sup>1</sup>».

يصف الشاعر هنا ابن عباد بأوصاف الكرم والفضائل بقوله: "أسبغها سربالا" كناية على سعة فضائله يعطيها بغير حساب، فالمتأمل لهذا الوصف المبالغ فيه يحس وكأن لا أحد بلغ هذه الدرجة من الكرم والفضل، وإنما هو ابن زيدون إذا أراد شيئاً يليق بمقامه دفع فيه الغالي والنفيس، وفي هذا المعنى يكمل ابن زيدون قوله:

«كَمَا أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي سَاصِلٌ إِلَى مَا لَمْ أَعْهَدْ مِثْلَهُ مِنْ بَهَاءِ مَنْظَرٍ، وَسَنَاءِ مَخْبَرٍ، وَرِفْعَةِ شَأْنٍ، وَعَظِيمِ سُلْطَانٍ، وَكَفَلُ السَّعَادَةِ تُمِيءُ لِي مِنَ الْحِظِّ مَا أَتَيْتُ بِهِ مَا ادَّعَيْتُهُ لِنَفْسِي فِي هَذِهِ الصِّفَاتِ<sup>2</sup>».

ذلكم هو ابن زيدون لا يخفي طموحاته، يصرح بها علناً، وربما ذلك الذي ألب عليه الشامتين الحاسدين، أو ربما غروره هو الذي يملئ عليه ذلك، من يدري؟

## ز الرسالة العبادية الثانية

كتب ابن زيدون إلى المعتضد بن عباد الرسالة الثانية بعد أن غادر قرطبة، ومما جاء فيها قوله:

\* المناقب: الأفعال الكريمة، الضرائب: الطبائع، أسبغها: أوسعها، سربالا: قميصاً.

<sup>1</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله، مصدر سابق، ص 769.

<sup>2</sup> الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، الشنتريني أبو الحسن علي بن بسام، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، (دط)،

1417هـ/1997م، مج 1، ص 406.

«أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ مَوْلَايَ لِلنَّعْمِ يُطَوِّقُهَا، وَالْأَمَالَ يَصْدِقُهَا، وَالْمِنْنَ يُقَلِّدُهَا، وَالْأَحْرَارَ يَسْتَعْبِدُهَا، يَعْلَمُ الَّذِي أَسْأَلُهُ إِعْزَازَ مَوْلَايَ، وَإِعْلَاءَ أَمْرِهِ، وَصِلَةَ تَأْيِيدِهِ، وَتَمَكِينَ نَصْرِهِ، إِنِّي لَمْ أَزَلْ مُنْذُ فَارَقْتُ حَضْرَتَهُ الْجَلِيلَةَ، وَحَضْرَةَ الْمَجْدِ وَالسِّيَادَةِ، وَمَحَلَّ الْإِقْبَالِ وَالسَّعَادَةِ، لَهَجَ اللِّسَانِ بِمَا أَجْنَانِي مِنْ ثَمَارِ الْحِكْمَةِ وَالنَّعْمَةِ»<sup>1</sup>.

وكي يثبت ابن زيدون أنه وفي لمولاه، وحتى لا يظن أحد أنه يقول ذلك الكلام في حضرته، ها هو يبعث برسالة يفند ذلك الظن، وأنه لا ينسى نعم الأمير عليه، وأن لسانه لا يتوقف عن ذكرها بقوله: "لم أزل منذ فارقت حضرته الجليلة... لهج لساني...."، ويؤكد ذلك قوله في هذين البيتين\*:

فَأَرَى صِدْقَكَ الْحَدِيثَ وَمَاذَا      كَ لِبُخْلِي عَلَيْكَ بِالْإِغْضَاءِ  
أَنْتَ عَيْنِي وَلَيْسَ مِنْ حَقِّ عَيْنِي      غَضُّ أَجْفَانِي عَلَى الْأَفْذَاءِ<sup>2</sup>

واقْتباس ابن زيدون من شعراء المشرق ميزة تميز به نثره وشعره، هل هذا تأثر بهم -كما سبق القول في منهجه-؟، أم تعد من السرقات المباحة؟

<sup>1</sup> الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مرجع سابق، ص407.

\* البيتان لابن الرومي، ديوانه ص66، بحسب الهامش في الذخيرة.

<sup>2</sup> الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مرجع سابق، ص407.



# الملحق الثاني

## المدونة (الرسالة الجدية)

- زمان ومكان كتابتها
- أسباب كتابتها
- طبيعتها وأسلوبها

## أولاً: زمان ومكان كتابتها

كان من نتائج التربية الخاصة والمميزة التي تلقاها ابن زيدون من أبيه أولاً ثم من شيوخه ثانياً أن اكتسب شخصية مرموقة في الأندلس عامة، وإشبيلية وقرطبة خاصة فـ «قد أثنى عليه ابن بسام في ذخيرته، والفتح بن خاقان في قلائد العقبان بما يسر الناظر ويشرح خاطر، تقلد وزارة ابن جهور أحد ملوك الطوائف بالأندلس»<sup>1</sup>.

وكل ذلك لم ينله ابن زيدون إلا بعلمه الذي كان يسيل على لسانه الفصيح سيلاً، إلا أن الأمر لم يسر كما كان يتمنى ويشتهي، بل سارت كما خطط لها خصومه وحاسدوه؛ فقد مال عليه ابن جهور وأدخله السجن.

إلا أن ابن زيدون لم يتصرف بطيش اتجاه هذا الموقف، بل سخر لسانه ولغته وفصاحته وكل ما يملك من علم ومعرفة في التاريخ والأدب، والأمثال والحكم، ثم طرز لابن جهور رسالة -كما يقول عنها مصطفى عناني-: «....ما سمعها أبي إلا عطفت جنانه، ولا جامع إلا لوت عنانه»<sup>2</sup>.

وكأين من البشر يتعرض لمثل هكذا موقف، فإنه يسارع لإثبات براءته بالقول والفعل، ولأن ابن زيدون يدرك قيمة ما عنده ويفقه جيداً سياق حاله، فإنه فضل أسلوب الاستعطاف والاستشفاع بدلاً من المواجهة الخطابية.

لم تذكر الكتب التي تم الاطلاع عليها الوقت المحدد الذي بدأ فيه ابن زيدون كتابة هذه الرسالة؛ إلا أنه ورغم توسلاته لابن جهور فإن الأخير لم يعف عنه، فهرب من السجن وفر

<sup>1</sup> إظهار المكنون من الرسالة الجدية لابن زيدون، مصطفى العناني، مطبعة الواعظ، ط2، جمهورية مصر العربية، 1324هـ/1906م، ص3.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص نفسها.

إلى إشبيلية، فلذلك -وإذا افترضنا- أنه مكث في السجن شهورا فإنه قد كتبها ما بين 432هـ - إلى 433هـ<sup>1</sup>.

## ثانيا: أسباب كتابتها

بالعودة إلى شخصية ابن زيدون وطريقة تكونها، يستشف أنها جمعت بين الشموخ المحمود، والذي يتسامى به عن السفلة من الناس من جهة، وعن سفاسف الأمور من جهة ثانية، وبين التعالي المذموم الذي يجلب لصاحبه خصوما وحسادا وحقادا كثيرا.

ثم ما زاد في هذا التعالي مدح الأدباء والعلماء له، وإعجاب الناس به وبعلمه، ثم تقريب الأمراء له منهم، فأحس في نفسه بشيء من الأفضلية على الآخرين، وهو يعلم -لا ريب- أن لكل ذي نعمة حسود، كما كان يعلم أيضا أن النعمة لا تدوم، حتى وإن قصر في عمرها آخرون من باب الحسد.

لذلك فابن زيدون اغتر بنفسه، ولم يحسب حساب مكائد الكائدين، فوقع في شركهم وأدخلوه السجن نكاية فيه وفي غروره، ومن ذلك ما ذكره شوقي ضيف: «ولم يلبث ابن عبدوس وبعض خصومه أن نسبوا إليه أنه يشترك في مؤامرة على السلطان»<sup>2</sup>.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، ولم يكتف خصومه بذلك؛ بل انهالوا عليه بأنواع التهم؛ وأنه استولى على عقار ليس له، فما كان من العدالة إلا أن تأخذ مجراها<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> ينظر، ديوان ابن زيدون ورسائله، المصدر السابق، ص 43.

<sup>2</sup> نوايغ الفكر العربي ابن زيدون، شوقي ضيف، دار المعارف، ط1، القاهرة، (دت)، ص 23.

<sup>3</sup> ينظر، المرجع نفسه، ص نفسها.

ومن المعروف أن المصائب لا تأتي فرادى؛ فقد وقع ابن زيدون في قبضة القاضي أبو محمد عبد الله بن أحمد المعروف بابن المكوى، وكما هو معلوم فإن القضاة زمن الأندلس كانوا متحكمين في سير القضاء وسير الحكم أيضا، هذا القاضي «كانت بينه وبين الشاعر مواجهة قديمة.... فلما عرضت عليه قضيته أمر تَوًّا بسجنه وشدد فيه»<sup>1</sup>.

في السجن أحس الشاعر بأنه صار لقمة سائغة لشماتة الشامتين، ومطية للمتحدثين، وقصة للمتسمرين. وهو الذي كان يشار إليه بالبنان، فلذلك هبّ ليدافع عن صيته الذي ذاع وشخصه الذي طالما أحبه الناس واحترموه، فكتب أشعارا يناشد فيها الأمير بمراجعة موقفه، لأنها تلفيقات لفقت له، ومنها:

أَنْ زَعَمَ الْوَاشُونَ مَا لَيْسَ مُرْعَمًا    تُعْذِرُ فِي نَصْرِي وَتُعْذِرُ فِي خَذْلِي<sup>2</sup>

ومن ذلك يمكن استنتاج الأسباب الحقيقية وراء كتابة الرسالة الجديدة، فابن زيدون أديب طموح، وطموحه ليس له حدود، ومن ثم فحبسه معناه توقيف ذلك الطموح، ولذلك فالرسالة جاءت مليئة بالاستعطاف والتوسل، ثم لو كان الأمر متعلقا بالسجن في حد ذاته للزمه وصبر حتى يجعل الله له سبيلا، وإنما القضية في حبس الطموح والحلم قسرا، وإعطاء الفرصة للخصوم ليقولوا كلمتهم فيه، ثم السبب الثالث فوق ذلك حبسه ظلما بإيعاز من الواشين، ولذلك فهو يقول:

كُلُّ الْمَصَائِبِ قَدْ تَمَرَّ عَلَى الْفَتَى    وَتَهُونُ غَيْرَ شِمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ<sup>3</sup>

<sup>1</sup> نوابع الفكر العربي ابن زيدون، مرجع سابق، ص23.

\* تُعْذِرُ: لا تجد عذرا، تُعْذِرُ: تلتمس عذرا

<sup>2</sup> نوابع الفكر العربي ابن زيدون، مرجع سابق، ص23.

<sup>3</sup> تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، خليل بن أبيك الصفدي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، (دط)،

1969م، بيروت، ص22.

والدليل على ذلك أنه كان مستعدا للتصبر والتجلد من أجل ألا يري الشامتين ضعفا ولا هوانا.

وَتَجَلَّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمْ أَنِّي لَرَيْبٍ الدَّهْرُ لَا أَتَضَعُّعُ<sup>1</sup>

ومن ثم فأسباب كتابة هذه الرسالة نفسية خالصة.

### ثالثا: طبيعتها وأسلوبها

ويقصد هنا طبيعة الرسالة من الناحية الفنية الأدبية، بمعنى كيف وردت؟ هل جاءت نثرية أم شعرية؟، والحقيقة أن الذي يطلع على الرسالة في كذا مصدر ومرجع، تجدها مزيجا بين الشعر والنثر، ونثرها سجعه وموسيقاه أقرب إلى الشعر، فالرسالة وردت في ديوان ابن زيدون ورسائله لعلي عبد العظيم ممزوجة بين النثر والشعر، ومصحوبة بشروحات وإحالات في الهامش، بينما أوردها خليل بن أبيك الصفدي ممزوجة نثرا وشعرا، غير أنه أسبقها بالنثر ثم أنهاها بقصيدة شعرية متوسطة الطول، ومصحوبة أيضا بشروحات وإحالات إلى الشعر الذي اقتبس منه الشاعر، والأمثال والحكم العربية، كما تعمق في بيان أقوال ابن زيدون من الناحية اللغوية والبلاغية، خاصة لقوله مثلا في قول ابن زيدون: «إن سلبتني -أعزك الله- لباس إنعامك وعطلتني من حلي إيناسك»<sup>2</sup>.

يقول الصفدي في شرحها: «...وقد استعار الاستلاب للباس والعطل للحلي، وهي استعارة حسنة، كأن إنعامه له بمنزلة اللباس، فارتجعه وسلبه، وكأن إيناسه له كان بمنزلة الحلي له فعطله منه، وترك جيده بلا قلادة عاريا من حلي الأنس»<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، مرجع سابق، ص22.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص39.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص40.

ثم أتبع الصفدي الرسالة في نهايتها بنقد لما جاء فيها من شكل كتوجيهاً وتعليقات، مفضلاً ومعاتباً أحياناً.

أما ما تعلق بأسلوب الرسالة، فقد تنوع بين الاستعطاف والتوسل والعتاب، غير أن ابن زيدون وقبل البدء في الاستعطاف، أراد أن يضع الأمور في نصابها؛ وبالذات ينبغي أن يضع الأمير موضعه اللائق، حتى لا يتهم بقلّة الاحترام بعد ذلك. فعندما يقول: «يَا مَوْلَايَ وَسَيِّدِي الَّذِي وَدَّادِي لَهُ، وَاعْتِمَادِي عَلَيْهِ، وَاعْتِدَادِي بِهِ»<sup>1</sup>.

فذلك أول اتصال أو قناة بينه وبين ابن جهور؛ فحسن المدخل ينبئ بحسن الخاتمة، فالمولى هو صاحب النعم، والسيد هو الذي يؤوّل إليه الأمر من قبل ومن بعد، فكل المودة له، وكل الاعتماد عليه، وهو عدته كلها، فليس له من الأمر شيء من دونه.

يأتي بعد ذلك الاستعطاف بقوله: «إِنْ سَلَبْتَنِي -أَعَزَّكَ اللهُ- لِبَاسِ إِنْعَامِكَ، وَعَظَّمْتَنِي مِنْ حُلِيِّ إِيْنَاْسِكَ، وَأَظْمَأْتَنِي إِلَى بُرُودِ إِسْعَافِكَ، وَنَفَضْتَ بِي كَفَّ حَيَاطَتِكَ»<sup>2</sup>.

كأن ابن زيدون نسي صاحب الفضل الحقيقي، وصاحب النعمة ومولاها، وعلّق كل آماله وآلامه بابن جهور، وهو إنسان مثله، وهذه ذروة في المبالغة، وهي تنم بلا تشكك عن صدقه، فإذا زاد الشيء عن حده، انقلب إلى ضده -كما يقال- وذلك لما لم يجد أيّة نتيجة من الاستعطاف، انتقل إلى مرحلة التوسل، وهو أعلى درجة من الاستعطاف، وأقل درجة نحو الانحدار والتذلل إلى درجة التسليم والاعتراف بالخطأ.

<sup>1</sup> تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، مرجع سابق، ص36.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص40.

وقد مهد للتوسل بالتظاهر أمام أعدائه من الحساد والشامتين أنه على درجة عالية من الصبر والتجَلّد، فلا تدع -أيها الأمير- هؤلاء المتربصين بأن يخطوا من قيمتي، إذ يقول: «وَإِنِّي لَا أَتَجَلَّدُ وَأَرِي لِلشَّامِتِينَ أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعُّعُ، فَأَقُولُ هَلْ أَنَا إِلَّا يَدٌ أَدْمَاهَا سَوَارُهَا وَجَبِينُ عَضَّ بِهِ إِكْلِيلُهُ»<sup>1</sup>.

ومعنى ذلك أنه وضع ابن جهور موضع الذهب الذي يتزين به، وما أصابه إنما كان ذلك من نفسه التي تزينت به، وليس من أحد آخر، ولا بأس لمن تسوّل له نفسه أن يتعد حدود الآخرين أن يزجر حتى يعود إلى سابق عهده، وعبد ذهب به سيده فذهب الذي يقول:

فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِمًا      فَلَيْقَسْ أَحْيَانًا عَلَى مَنْ يَرْحَمُ<sup>2</sup>

إن بدأ الشاعر الانبطاح والتذلّل، وذلك من صميم التوسل؛ عسى أن يجد أذنا صاغية عند الأمير، وهو الذي نسب الأمر في بدايته إلى مكائد الشامتين والحاسدين، وليس هذا فحسب؛ بل تقبل الأمر وصار لديه محمودا. «هَذَا الْعَتَبُ مُحَمَّدٌ عَوَاقِبُهُ، وَهَذِهِ النَّبُوءَةُ غَمْرَةٌ ثُمَّ تَجَلِّي، وَهَذِهِ النَّكْبَةُ سَحَابَةٌ صَيْفٍ عَنْ قَلِيلٍ تَقْشَعُ»<sup>3</sup>.

ولما لم يكن من التوسل نتيجة، راح يصبر نفسه على ألا تقلق من بطاء سيدها، فهو كالسحابة المليئة بالماء تكون بطيئة الحركة، أفتراه يستمر في هذا التصبر؟ أم أنه يسقدم على إجراء آخر؟

<sup>1</sup> تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، مرجع سابق، ص 65.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص 72.

\* النَّبُوءَةُ: التباعد، الغمْرَةُ: الشدة وجمعها غَمَرٌ

<sup>3</sup> تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، مرجع سابق، ص 74.

وإنه مازال يطمئن نفسه من خلال تتابع عبارات الرسالة، وكأنها جرعات مسكن مرة المذاق يبتلعها على مضض، إلى أن بدأ يلّمح إلى العتاب بقوله: «لَهُ الْحَمْدُ عَلَى اهْتِبَالِهِ\*، وَلَا عَتَبَ عَلَيْهِ فِي إِغْفَالِهِ»<sup>1</sup>.

فقد بدأ الشك في إطلاق سراحه يتخلل إلى قلبه، إلا أنه مازال يقاوم، ولا يسمح له بالولوج إلى مكامن الثقة، ولذلك راح يعلل إغفاله هذا بأنه لا يرى بين عديد أفعاله المحمودة فقال:

فَإِنْ يَكُنِ الْفِعْلُ الَّذِي سَاءَ وَاحِدًا فَأَفْعَالُهُ اللَّائِي سَرَرْنَ أُلُوفُ<sup>2</sup>

أما وأنه قد صبر واستعطف وتوسل، ولكن ذلك لم يغير من الأمر شيئاً، فقد انتقل إلى الاستفهام، وهو مقدمة لشيء ما يسبقه، إنه استفهام مبطن باللوم الذي هو مفهوم للعتاب حيث يقول: «وَأَعُوذُ فَأَقُولُ: مَا هَذَا الذَّنْبُ الَّذِي لَمْ يَسْعَهُ عَفْوُكَ، وَالْجَهْلُ الَّذِي لَمْ يَأْتِ مِنْ وَرَائِهِ حِلُّكَ،.... وَلَا أَخْلُو مِنْ أَنْ أَكُونَ بَرِيئًا فَأَيْنَ عَدْلُكَ أَوْ مُسِيئًا فَأَيْنَ فَضْلُكَ؟....»<sup>3</sup>.

ومن ثم بدأت بؤادر العتاب تتكشف وتطفو، فهو غير مستعد لأن يمكث في السجن أكثر مما هو فيه، فراح يقارن ذنبه بذنوب ارتكبت عبر التاريخ، وهي ذنوب عظام، ليبين لابن جهور أنه مهما يكن ذنبي كبير فلا يصل إلى ذنب هؤلاء.

وقرر بعد ذلك أن يبرئ ذمته، وأن يقدم دلائله، ولتكن أول خطوة من الحديث النبوي الشريف: عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لَوْ يُعْطَى

\* الَاهْتِبَالُ: الاغتنام، اهتبل غفلته: تحيئها واغتتمها، الهَبَالُ: الصياد

<sup>1</sup> تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، مرجع سابق، ص 86.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص 88.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص 97.



النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ، لَادَّعَى رِجَالُ أَمْوَالٍ أَقْوَامٍ وَدِمَاءَهُمْ، لَكِنَّ الْبَيِّنَةَ عَلَى الْمُدَّعِيِ وَالْيَمِينَ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ». (حديث حسن رواه البيهقي وغيره هكذا في الصحيحين). وها هو يقسم قائلاً: «والله ما غَشَّشْتُكَ بَعْدَ النَّصِيحَةِ، وَلَا انْحَرَفْتُ عَنْكَ بَعْدَ الصَّاعِيَةِ، وَلَا نَصَبْتُ لَكَ بَعْدَ التَّشْيِيعِ فِيكَ، وَلَا أَرَمَعْتُ يَأْسًا مِنْكَ، مَعَ ضَمَانٍ تَكَفَّلْتُ بِهِ الثِّقَةَ عَنْكَ»<sup>1</sup>.

ولكيلا يدع للأمير مجالا للشك في نواياه التي تسترها نفسه، ها هي كلماته تفضحها حتى ولو حلف وتابع ذلك بسلسلة من اللاءات. وما يؤكد ذلك قوله بعد هذا القسم: «فَقِيمَ عَبَثَ الْجَفَاءِ بِأَذْمَتِي»<sup>2</sup>. وهذا اليأس مما هو فيه، كذلك يجره هذا بالضرورة إلى مرحلة جديدة وأسلوب جديد سينتهجه معه، وهو الاستفهام الذي يشمل التحضيض والعتاب والالتهام، وذلك بقوله: «وَمَالِكَ لَمْ تَمْنَعْ مِنِّي قَبْلَ أَنْ أُفْتَرَسَ، وَتُدْرِكَنِي وَلَمَّا أُمْرِقُ»<sup>3</sup>.

ويتوالى في هذا الاستفهام المبطن إلى أن يصل أن يبدأ في المن على الأمير بتعداد خدماته الجليلة التي كان يقدمها له، إلى أن يضع كل آماله في القصيدة التي يختم بها رسالته وهو يخاطبه قائلاً: «هَا كَهَا - أَعَزَّكَ اللَّهُ - يَبْسُطُهَا الْأَمَلُ وَيَقْبِضُهَا الْخَجَلُ»<sup>4</sup>.

ورغم ما قدمه الشاعر في رسالته هذه لابن جهور من استعطاف وتوسل وعتاب وثناء؛ لم يشفع له ذلك، إلى أن قرر الهروب من السجن والفرار إلى إشبيلية التي توفي بها سنة 463هـ.

<sup>1</sup> تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، مرجع سابق، ص254.

\* أَدْمَتِي: حُرْمَتِي

<sup>2</sup> تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، مرجع سابق، ص258.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص275.

<sup>4</sup> المرجع نفسه، ص396.

المدونة

## رسالة ابن زيدون

وها أنا أورد الرسالة منقولة من خط الإمام علي بن ظافر ، رحمه الله تعالى ، وأنبئها جمة ، ثم أعود بعد ذلك وأوردُها شيئاً فشيئاً ، من أولها إلى آخرها ، وكلما أوردتُ منها شيئاً أوضحتُ مُبهمه ، وفصلتُ مُجملَه ، وأوردتُ ماله به عَلافة ، مستهيناً في بلوغ المقصود بالله تعالى .

كتب أبو الوليد أحمد بن زيدون إلى ابن جهور :

يا مولاي وسيدي الذي ودادي له ، وأعتادي عليه ، وأعتادي به .  
ومن أبقاه الله تعالى ماضى حدّ العزم ، وارى زناد الأمل ، ثابت عهد النعمة .  
إن سلبتني أعزك الله لباس إنعامك ، وعطلتني من حُلّي إيفائك ، وأظمتني إلى برود إسماعك ، ونقضت بي كف حياطتك ، وغضضت عني طرف حبايبك ؛  
بعد أن نظرت الأغمى إلى تأملي لك ، وسمعت الأصم ثنائاً عليك ، وأحسّ الجماد باستحماذي إليك ؛ فلا غزو ، قد يغص بالماء شاربُه ، ويقبل الدواء المستشفى به ، ويؤتى الخدير من مأمته ، وتسكون منية الممّنى في أمّيته ،  
والحين قد يسبق حرص الحريص .

كلّ المصائب قد تمرّ على الفتى وتهون غير شمانعة الأعداء  
وإني لأتجلّد ؛ وأرى الشاكيتين أنى لرب الدهر لا أتضعضع ، فأقول :  
هل أنا إلا يدّ أذماها سوارها ، وجبين عضّ به إكليله ، ومشرق السقّة  
بالأرض صائله ، وسمّريّ عرضه على النار مثقفه ، وعبد ذهب به سيده  
مذهب الذي يقول :

فقساً ليزدجروا ومن يك حازماً فليقس أحياناً على من يرّحم  
هذا العتب محمود عواقبه ، وهذه النبوة عمرة ثم تنجلي ، وهذه النسكة  
سحابة صيف عن قليل تقشع . ولن يريني من سيدي أن أبطأ سيّبه ،

أو تأخرَ غيرَ ضنينِ غناؤه ، فأبطأ الدلاءَ فيمضاً أملوها ، وأنقلُ السحابَ مشياً  
أحفلها ، وأنفعُ الحيا ما صادفَ جذبا ، وألذُّ الشراب ما أصابَ غليلا ، ومع  
اليومِ غدٌ ، ولا كلُّ أجلٍ كتاب ؛ له الحمدُ على أهتباله ، ولا عتبٌ عليه في  
إغفاله .

فإن يَكُنِ الفعلُ الذي ساء واحدًا فأفعاله اللاتي سرزن ألوف

- وأعود فأقول : ما هذا الذنب الذي لم يَسْمعه عقوبك ، والجهل الذي لم يأت  
من ورائه حلمك ، والتطاؤل الذي لم يستغفره تطوُّلك ، والتحايل الذي  
لم يَف به احتيالك ؛ ولا أخلو من أن أكونَ بريئا فأين العدل ! أو مُسيئا  
فأين الفضل !

إلا يَكُنْ ذنبٌ فَمَعْدُك واسعٌ أو كان لي ذنبٌ ففَضْلُك أوسعُ

حَفَانِيكَ ! قد بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبْيَ ، ونالني ما حَسَنِي به وكَفَى . وما أُرَانِي  
إلا لو أني أُمِرْتُ بالسَّجودِ لآدَمَ فَأَبَيْتُ وَأَسْتَكْبَرْتُ ، وقال لي نوح :  
﴿ ازْكَبْ مَعْنَا ﴾ ، فقلت : ﴿ سَأَوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِيُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴾ ، وأُمِرْتُ  
بِدِينِهِ صَرْحَ أَعْلَى أَطْلُعُ إِلَى إِلَهٍ مُوسَى ، وعَكَفْتُ عَلَى الْعِجْلِ ، وأَعْتَدْتُ  
فِي السَّبْتِ ، وتَعَاطَيْتُ فَعَقَرْتُ ، وشَرِبْتُ مِنَ النَّهْرِ الَّذِي أُبْتَلَى بِهِ جِيُوشُ  
طَالُوتَ ، وَقُدْتُ الْفَيْلَ لَأَبْرَهَةَ ، وعَاهَدْتُ قُرَيْشًا عَلَى مَا فِي الصَّحِيفَةِ ، وتَأَوَّلْتُ  
فِي بَيْعَةِ الْعَقَبَةِ ، وَكَفَرْتُ إِلَى الْعِيرِ بَبَدْرٍ ، وَأَخْرَزْتُ بِشَأْثِ النَّاسِ يَوْمَ أَحُدَ ،  
وتَخَلَّفْتُ عَنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ ، وَجِئْتُ بِالْإِفْكِ عَلَى عَائِشَةَ الصَّدِيقَةِ ،  
وَأَنِفْتُ مِنْ إِمَارَةِ أَسَامَةَ ، وَزَعَمْتُ أَنَّ بَيْعَةَ أَبِي بَكْرٍ كَانَتْ فُلْتَةً ، وَمِنْ أَدِلَّةِ  
الْقُرْآنِ عَلَى خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ ، وَرَوَيْتُ رُنْحِي مِنْ كِتَابَةِ خَالِدٍ ، وَزَرَقْتُ  
الْأَدِيمَ الَّذِي بَارَكْتَ بِدُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَضَعَيْتُ بِالْأَشْمَطِ الَّذِي عُفْوَانُ  
السَّجُودِ بِهِ ، وَبَذَلْتُ لِقَطَامَ :

ثلاثة آلاف وعَبْدًا وَقِيَّةً وَضَرَبَ عَلَى الْحُسَامِ الْمَسْمُومِ  
وَكَتَبْتُ إِلَى عَمْرِ بْنِ سَعْدٍ: أَنْ جَفَّحَ بِنِجَاحِ الْحَسَنِ، وَتَمَثَّلَتْ عِنْدَمَا بَلَغَنِي  
مِنْ وَقْعَةِ الْحَزَّةِ:

لَيْتَ أَشْيَاخِي يَبْدُرُ عَلِمُوا جَزَعُ الْخَزَرَجِ مِنْ وَقْعِ الْأَسَلِ  
وَرَجَحْتُ السَّكْبَةَ، وَصَلَبْتُ الْعَائِدَةَ عَلَى الثَّنِيَّةِ - لَسْكَانِ فِيمَا جَرَى عَلَى  
مَائِحَتَيْ أَنْ يَسْمَى نَسْكَالًا، وَبُدْعَى وَلَوْ ظَلَى الْمَجَازِ عِقَابًا.

وَحَسْبُكَ مِنْ حَادِثٍ بِأَمْرِي تَرَى حَاسِدِيهِ لَهُ رَاحِيَةً  
فَسَكِيفَ وَلَا ذَنْبَ إِلَّا تَمِيمَةً أَهْدَاهَا كَاشِحٌ، وَنَبَأُ جَاءَ بِهِ فَاسِقٌ،  
وَهُمُ الْهَمَّازُونَ الْمَشَاءُونَ بِنَمِيمٍ، وَالْوَاشُونَ الَّذِينَ لَا يَلْبَثُونَ أَنْ يَصْدَعُوا الْقَصَا،  
وَالْفَوَاءُ الَّذِينَ لَا يَبْتَرُكُونَ أُدَيْمًا صَحِيحًا، وَالشُّعَاةُ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ الْأَحْنَفُ  
ابْنُ قَيْسٍ، فَقَالَ: مَا ظَنُّكَ بِقَوْمِ الصَّدْقِ مُحَمَّدٍ إِلَّا مِنْهُمْ!

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيْبَةً وَلَيْسَ وَرَاءَ اللَّهِ لِمَرَّةٍ مَذْهَبُ  
وَوَاللَّهِ مَا غَشَّ شُكُّكَ بَعْدَ النَّصِيحَةِ، وَلَا انْحَرَفَتْ عَنْكَ بَعْدَ الصَّاعِيَةِ،  
وَلَا نَصَبْتُ لَكَ بَعْدَ النُّشَيْعِ فَيْكَ، وَلَا أَرْمَمْتُ بِأَسَا مِنْكَ مَعَ ضَائِنٍ تَكَلَّفْتُ  
بِهِ الثَّقَةَ عَنْكَ، وَعَهْدِي أَخَذَهُ حُسْنُ الظَّنِّ عَلَيْكَ؛ فَقِيمَ عَيْثَ الْجَفَاءِ بِأَذِمَّتِي،  
وَعَاثَ الْمُعْزُوقُ فِي مَوَاتِي، وَتَمَكَّنَ الضَّيَاعُ مِنْ وَسَائِلِي! وَلَيْمَ ضَاقَتْ مَذَاهِبِي،  
وَأَكْدَتِ مَطَالِبِي! وَعِلَامُ رَضِيَّتِي مِنَ الْمَرْكَبِ بِالتَّعْلِيقِ، بَلْ مِنْ الْغَنِيمَةِ  
بِالْإِيَابِ! وَأَنْتَى غَلَبَنِي الْغَلَبُ، وَفَخَّرَ عَلَيَّ الْعَاجِزُ الضَّعِيفُ، وَأَطَمَّتْنِي غَيْرُ  
ذَاتِ سِوَارٍ! وَمَالَكَ لَمْ تَمْنَعْ مِنِّي قَبْلَ أَنْ أَفْتَرَسَ، وَتُذِرْ كَنِي وَلِتَا أَمْرُقُ!  
أَمْ كَيْفَ لَا تَنْفَرَمُ جَوَانِحُ الْأَكْفَاءِ حَسَدًا لِي عَلَى الْخُصُوصِ بِكَ، وَتَقْطَعُ  
أَنْفَاسُ الشُّظْرَاءِ مُنَافَسَةً فِي السَّكَرَامَةِ عَلَيْكَ، وَقَدْ زَانَنِي أَسْمُ خِدْمَتِكَ،  
وَزَهَانِي وَسْمُ نِعْمَتِكَ، وَأَبْلَيْتُ الْبَلَاءَ الْجَمِيلَ فِي سِمَاطِكَ، وَقُمْتُ الْمَقَامَ  
الْحَمُودَ عَلَى سِاطِكَ.



أَلَسْتُ الْمُوَالِي فِيكَ غَرَّ قَصَائِدِ  
 هِيَ الْأَنْجُمُ أَفْعَادَتْ مَعَ اللَّيْلِ أَنْجُمًا  
 ثَنَاءً يُظَنُّ الرُّوضُ مِنْهُ مَنْوَرًا ضُجِّي، وَيُخَالُ الْوَشْيُ فِيهِ مُنَمَّمًا  
 وَهَلْ لَبَسَ الصَّبَاحُ إِلَّا بُرْدًا طَرَزْتُهُ بِفَضَائِلِكَ ، وَتَقَلَّدَتْ الْجُوزَاءُ  
 إِلَّا حَقْدًا فَصَلَّتُهُ بِمَآثِرِكَ ، وَأَسْتَعْلَى الزَّبِيحُ إِلَّا ثَنَاءً مَلَأْتُهُ مِنْ تَحَامِينِكَ ،  
 وَبَثَّ الْمِسْكُ إِلَّا حَدِيثًا أَذَعَّتُهُ فِي تَحَامِيدِكَ ! مَا يَوْمٌ حَلِيمَةً بِسَرٍّ .

وإن كنتُ لم أكنسك سَلِيبًا ، وَلَا حَلِيمَتِكَ عُظْلًا ، وَلَا وَسْمَتِكَ غُفْلًا ؛  
 بَلْ وَجَدْتُ أَجْرًا وَجِصًّا فَبَنَيْتُ ، وَمَكَانَ التَّوَلُّ ذَا سَمَةٍ فَقُلْتُ  
 حَاشَاكَ أَنْ أُعَدَّ مِنَ الْعَامِلَةِ النَّاصِبَةِ ، وَأَكُونَ كَالَّذِلَّةِ الْمَنْصُوبَةِ  
 تُضِيءُ لِلنَّاسِ وَهِيَ تَحْتَرِقُ ! فَلَكَ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ، وَهَوْبُكَ - وَبِي فِيكَ - أَوَّلِي .  
 وَلَعَمْرُكَ مَا جَهِلْتُ أَنْ صَرِيحَ الرَّأْيِ أَنْ أَتَحَوَّلَ إِذْ بَلَغْتَنِي الشَّمْسُ ،  
 وَنَبَاجِي الْمَنْزِلِ ، وَأَصْفَحَ عَنِ الْمَطَامِعِ الَّتِي تُقَطِّعُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ ، فَلَا أَسْتَوْطِيءُ  
 الْعِجْزَ ، وَلَا أَطْمَئِنُّ إِلَى الْفُرُورِ ؛ وَمِنَ الْأَمْثَالِ الْمَضْرُوبَةِ : خَامِرِي أُمَّ عَامِرِ ؛  
 وَإِنِّي مَعَ الْمَعْرِفَةِ أَنَّ الْجَلَاءَ سِبَاءٌ ، وَالثَّقَلَةَ مُثْلَةٌ .

وَمَنْ يَغْتَرِبَ عَنْ قَوْمِهِ لَمْ يَزَلْ يَرَى  
 مَصَارِعَ مَظْلُومٍ : نَجْرًا وَمَسْحَبًا  
 وَتُدْفَنُ مِنْهُ الصَّالِحَاتُ وَإِنْ يُبْسَى  
 يَكُنْ - مَا أَسَاءَ - النَّارَ فِي رَأْسِ كَبْكَبَا

أَعَارَفْتُ أَنَّ الْأَدبَ الْوَطَنُ لَا يُخَشَى فِرَاقُهُ ، وَالْخَلِيطُ لَا يُتَوَقَّعُ  
 زِيَالُهُ ، وَالذَّسِيبُ لَا يُجَفَى ، وَالْجَمَالُ لَا يُخْفَى . ثُمَّ مَا قَرَأْتُ السَّمْدَ لَكُوكِبِ أَبْهَى  
 أَمْرًا ، وَلَا أَسْنَى خَطَرًا ، مِنْ أَقْتَرَانِ غَيِّ النَّفْسِ بِهِ ، وَانْتِظَامِهَا نَسَقًا مَعَهُ ؛ فَإِنْ

الحِزْرَ لَهَا ، الضاربَ بِهِمْ فِيهِمَا - وَقَلِيلٌ مَا هُمْ - أَيْنَمَا تَوَجَّهْ وَرَدَ مَهْلِكٌ بِرٍّ ،  
وَحَطَّ فِي جَنَابِ قُبُولٍ ، وَضَوْحِكَ قَبْلَ أَنْزَالِ رَحْلِهِ ، وَأَعْطَى حُكْمَ الصَّيْحَى عَلَى  
أَهْلِهِ .

وقيل له : أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا فهذا مَيِّتٌ صَالِحٌ وَمَقِيلٌ

غير أن الوطن محبوب ، والمذشأ مألوف ، واللبيب يحين إلى وطنه ،  
حَنِينَ النَّجِيبِ إِلَى عَطْنِهِ ، وَالسَّكْرِيمَ لَا يَجْفَوُ أَرْضًا فِيهَا قَوَائِمُهُ ، وَلَا يَنْتَسِي  
بَلَدًا فِيهَا مَرَاضِمُهُ قَالَ الْأَوَّلُ :

أَحَبُّ بِلَادِ اللَّهِ مَا بَيْنَ مَنْعِجٍ إِلَى وَسْطَى أَنْ يَصُوبَ سَحَابُهَا  
بِلَادٌ بِهَا عَقُّ الشَّبَابِ تَمَانِي وَأَوَّلُ أَرْضٍ مَسَّ جِلْدِي تَرَانِي

هذا إلى مَغَالَتِي لَعَقْدِ جَوَارِكٍ ، وَمُنَافَسَتِي بِلَحْظَةٍ مِنْ قُرْبِكَ ، وَأَعْتِقَادِي  
أَنَّ الطَّمَعِ فِي غَيْرِكَ طَبَعٌ ، وَالْفَنَى مِنْ سِوَاكَ عَنَاءٌ وَكُلُّ الصَّيْدِ جَوْفُ الْفَرَا ،  
وَالْبَدَلُ مِنْكَ أَعْوَرٌ ، وَالْمَوْضُ نَفَاءٌ .

وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَى أَمِيرِي زَادَنِي ضَمًّا بِهِ نَظَرِي إِلَى الْأَمْرَاءِ  
وَفِي كُلِّ شَجَرَةٍ نَارٌ ، وَاسْتَمَجَدَ الْمَرْخُ وَالْعَفَّارُ . فَمَا هَذِهِ الْبَرَاءَةُ تَمُنُ  
يَتَوَلَّاكَ ، وَالْمَيْلُ عَمَّنْ لَا يَمِيلُ عَنْكَ ! وَهَلَا كَانَ هَوَاكَ فِيمَنْ هَوَاهُ فَيْكَ ،  
وَرِضَاكَ لِمَنْ رِضَاهُ لَكَ !

يَا مَنْ يَمِزُّ عَلَيْنَا أَنْ تُفَارِقَهُمْ وَخَدَانُنَا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَ كُنْ عَدَمٌ  
أَعْيَذُكَ وَنَفْسِي مِنْ أَنْ أَشِيمَ خَلْبًا ، وَأَسْتَمْطِرَ جَهَامًا ، وَأَكْدِمَ فِي غَيْرِ  
مَكَدَمٍ ، وَأَشْكُو شَكْوَى الْجَرْيَحِ إِلَى الْعُقْبَانِ وَالرَّخَمِ ؛ فَمَا أَبْسَسْتُ لَكَ  
إِلَّا لَتَدِرَ ، وَحَرَرْتُ لَكَ الْحَوَارِ إِلَّا لَتَحَنَ ، وَانْبَهَشْتُكَ إِلَّا لِأَنَامَ ،  
وَسَرَرْتُ إِلَيْكَ إِلَّا لِأَجْدِ الشَّرَى لَدَيْكَ . وَإِنَّكَ إِنْ شِئْتَ عَقَدَ أَمْرٍ تَيْسَّرَ ،

وَمَتَى أَعَذَرْتَ فِي قَلْبِكَ أَسْرِي لَمْ يَتَعَذَّرْ ، وَعِلْمُكَ مُحِيطٌ بِأَنَّ الْمَعْرُوفَ ثَمَرَةُ  
الْثَّغْمَةِ ، وَالشَّفَاعَةُ زَكَاةُ الْمَرْوَةِ ، وَفَضْلُ الْجَاهِ - تَعَوُّدٌ - بِهِ صَدَقَةٌ .

وَإِذَا أَمْرُكَ أَهْدَى إِلَيْكَ صَدِيقَةً مِنْ جَاهِهِ فَكَائِنُهَا مِنْ مَالِهِ  
لَعَلِّي أَنْ أُلْقِيَ الْعَصَا بِذَرَاكَ ، وَيَسْتَقَرَّ بِي الذَّوِيُّ فِي ظِلِّكَ ، وَأَسْتَأْنِفَ  
التَّأْدِبَ بِأَدَبِكَ وَالْإِحْتِمَالَ عَلَى مَذْهَبِكَ ، فَلَا أُوجِدُ لِلْحَاسِدِ حِجَالَ حَلِظَةٍ ،  
وَلَا أَدْعُ لِلْقَادِحِ مَسَاغَ لَفْظَةٍ ، وَاللَّهُ مَيَسِّرُكَ مِنْ إِبْطَالِي بِهِذِهِ الطَّلِبَةِ ، وَإِشْكَائِي  
مِنْ هَذِهِ الشُّكْوَى ، بِصَنِيعَةٍ تُصِيبُ مِنْهَا مَكَانَ الْمُصْنَعِ ، وَتَسْتَوْدِعُهَا أَحْفَظَ  
مُسْتَوْدِعٍ ، حَسْبَمَا أَنْتَ خَلِيقٌ لَهُ ، وَأَنَا مِنْكَ حَرِيٌّ بِهِ ؛ وَذَلِكَ بِيَدِهِ ،  
وَهَيِّنْ عَلَيْهِ .

وَلَمَّا تَوَالَتْ غُرُرُ هَذَا النُّثْرِ وَاتَّسَقَتْ دُرَرُهُ ، فَهَرَّ عِطْفُ غُلَوَائِهِ ،  
وَجَرَّ ذَيْلُ خُيَلَانِهِ ، عَارِضَهُ بِالنَّظْمِ مُبَاهِيًا ؛ بَلْ كَابَدَهُ مُدَاهِيًا ، حِينَ أَشْفَقَ  
أَنْ يَسْتَعِظِفَكَ أَسْتَعِظَافُهُ ، وَتَمِيلَ بِنَفْسِكَ الْطَافُهُ ، فَاسْتَحْسَنَ الْعَائِدَةَ مِنْهُ ،  
وَأَعْتَدَ بِالْفَائِدَةِ لَهُ ، فَمَا زَالَ يَسْتَكِدُّ الذِّهْنَ الْعَلِيلَ ، وَالْخَاطِرَ الْكَامِلَ ،  
حَتَّى زَفَّ إِلَيْكَ عَرُوسًا مَجْلُوتَةً فِي أَثْوَابِهَا ، مَنْصُوصَةً بِخَلْيِهَا وَمَلَابِسِهَا ، وَهِيَ :

الْهَوَى فِي طُلُوعِ تِلْكَ النُّجُومِ - وَالْمُنَى فِي هُبُوبِ ذَاكَ النَّسِيمِ -  
سَرَّنا عَيْشُنَا الرِّفِيقُ الْخَوَاشِي لَوْ يَدُومُ الشَّرُورُ الْمُسْتَدِيمِ -  
وَطَرَّ مَا أَنْقَضَى إِلَى أَنْ تَقَضَى زَمَنٌ مَازِمًا - بِالذَّمِّمِ -  
إِذْ خَتَمَ الرِّضَا الْمَسْوُوعَ مِسْكٌ - وَمِزَاجُ الْوِصَالِ مِنْ تَسْنِيمِ -  
وَعَرِضَ الدَّلَالِ غَضٌّ جَنَى الصَّبْرِ - نَشْوَانٌ مِنْ سُلَافِ الذَّمِّمِ -  
طَالَمَا نَافَرَ الْهَوَى مِنْهُ عِزٌّ لَمْ يَطُلْ عَهْدُ جِيْدِهِ بِالْتِمِيمِ -  
زَارَ مُسْتَخْفِيًا ، وَهَيْهَاتَ أَنْ يَنْخَ فِي سَنَا الْبَدْرِ فِي الظَّلَامِ الْبَهِيمِ -



فَوَيْسَ الْخُلَى إِذْ مَشَى وَهَمًّا عَظِيمًا  
 أَيُّهَا الْمُؤْذِنِي بَطْلَمْ أَلَيْسَ إِلَيَّ  
 مَا تَرَى الْبَذْرَ إِنْ تَأْمَلْتَ وَالْشَّجَرُ  
 وَهُوَ الدَّهْرُ لَيْسَ يَنْفَكُ يَنْفَكُوا  
 بَوَّأَ اللَّهُ جَهَنَّمَ أَشْرَفَ السُّو  
 وَاحِدٌ سَلَّمَ الْجَمِيعُ لَهُ الْأُمُورُ  
 قَلْدَ الْقَمَرُ ذَا التَّجَارِبِ فِيهِ  
 خَطَرٌ يَقْتَضِي الْكَمَالَ بِنَوْعِي  
 أَسْوَدَ الرُّوضِ تَطْيِيبُكَ يَحْظَى  
 إِنْ هَذَا الْوَزِيرُ هَا أَنَا أَشْكُو  
 مَا غَنَّا أَنْ يَأْتِيَ السَّابِقَ الْمَرْ  
 وَثَوَاءُ الْحَسَامِ فِي الْجَفْنِ يَثْنَى  
 أَفْضَرُ مَثْنٍ جَسَافًا مِنَ الْأَبْتَامِ  
 وَمُعْنَى مِنَ الصَّبَا بِهِنَاتٍ  
 سَقَمٌ لَا أُعَادُ مِنْهُ وَفِي الْعَمَاءِ  
 نَارُ بَغْيٍ سَمَى إِلَى جَنَّةِ الْأَنْسِ  
 بَابِي أَنْتَ إِنْ تَشَأْتِ بَرْدًا  
 لِلشَّفِيعِ الثَّمَنَاءِ وَالْحَمْدُ فِي صَوْتِ  
 وَزَعِيمٍ بَأَن يَذَلَّ إِلَى الصُّعْ  
 وَثَنَاءُ أَرْسَلْتَهُ سَلَوَةَ الظَّالِمِ  
 وَوَدَادٌ يُفَيِّرُ الدَّهْرَ مَا شَاءَ  
 فَهُوَ رَيْثَانَةُ الْجَلِيدِ وَلَا فَخْرَ  
 لَمْ تَزَلْ مُعْنِيًا عَلَى هَفْوَةِ الْجَا  
 بُ إِلَى حُسْنِ كَاشِحٍ بِالْغَنَمِ  
 لَيْسَ دَهْرِي بِوَاحِدٍ مِنْ ظُلُومِ  
 سَ مَا يُكْسِفَانِ دُونَ النُّجُومِ  
 بِالْمُصَابِ الْعَظِيمِ نَحْوِ الْعَظِيمِ  
 دَدِي فِي السَّرِّ وَاللُّبَابِ الصَّيِّمِ  
 رَفِ كَانَ الْخُصُوصُ وَفَقِ الْمُعُومِ  
 وَأَكْتَفَى جَاهِلٌ بِعِلْمِ عَالِمِ  
 خُلُقِي بَارِعٍ وَخُلُقِي وَسِيمِ  
 نَظَرٌ مَا أَعْتَمَدْتَهُ وَشِيمِ  
 وَالْعَصَا بَذَرْتُ قَرْعَهَا لِلْحَلِيمِ  
 بَطْ فِي الْعَتَقِ مِنْهُ وَالتَّطْهِيمِ  
 مِنْهُ بِعَدِ الْمَضَاءِ وَالتَّصْمِيمِ  
 نَاهِيكَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمِ  
 نَكَاتٌ بِالْكُومِ قَرْخُ الْكُومِ  
 تُدْ أَنْسُ بِنِي بَيْزِهِ السَّقِيمِ  
 نَارِ بَغْيٍ سَمَى إِلَى جَنَّةِ الْأَنْسِ  
 بَابِي أَنْتَ إِنْ تَشَأْتِ بَرْدًا  
 لِلشَّفِيعِ الثَّمَنَاءِ وَالْحَمْدُ فِي صَوْتِ  
 وَزَعِيمٍ بَأَن يَذَلَّ إِلَى الصُّعْ  
 وَثَنَاءُ أَرْسَلْتَهُ سَلَوَةَ الظَّالِمِ  
 وَوَدَادٌ يُفَيِّرُ الدَّهْرَ مَا شَاءَ  
 فَهُوَ رَيْثَانَةُ الْجَلِيدِ وَلَا فَخْرَ  
 لَمْ تَزَلْ مُعْنِيًا عَلَى هَفْوَةِ الْجَا  
 بُ إِلَى حُسْنِ كَاشِحٍ بِالْغَنَمِ  
 لَيْسَ دَهْرِي بِوَاحِدٍ مِنْ ظُلُومِ  
 سَ مَا يُكْسِفَانِ دُونَ النُّجُومِ  
 بِالْمُصَابِ الْعَظِيمِ نَحْوِ الْعَظِيمِ  
 دَدِي فِي السَّرِّ وَاللُّبَابِ الصَّيِّمِ  
 رَفِ كَانَ الْخُصُوصُ وَفَقِ الْمُعُومِ  
 وَأَكْتَفَى جَاهِلٌ بِعِلْمِ عَالِمِ  
 خُلُقِي بَارِعٍ وَخُلُقِي وَسِيمِ  
 نَظَرٌ مَا أَعْتَمَدْتَهُ وَشِيمِ  
 وَالْعَصَا بَذَرْتُ قَرْعَهَا لِلْحَلِيمِ  
 بَطْ فِي الْعَتَقِ مِنْهُ وَالتَّطْهِيمِ  
 مِنْهُ بِعَدِ الْمَضَاءِ وَالتَّصْمِيمِ  
 نَاهِيكَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمِ  
 نَكَاتٌ بِالْكُومِ قَرْخُ الْكُومِ  
 تُدْ أَنْسُ بِنِي بَيْزِهِ السَّقِيمِ

ومتى نبدا الصنعة يوليـ لك تمام الخصال بالتميمـ

هاكها أعزك الله يبدسطها الأمل ، ويقبضها الخجل ، لها ذنب التقصير ،  
وحزمة الإخلاص ، فتهب ذنبا لحزمة ، واشفع نعمة بنعمة ؛ ليمتأني لك الإحسان  
من جهاته ، وتسلك إلى الفضل طرقاته ؛ إن شاء الله تعالى .

هذه الرسالة الزيدونية بجملة نثر ونظما ، منقولة من خط ابن ظافر رحمه  
الله تعالى .



# قائمة المراجع

## قائمة المراجع

1. القرآن الكريم
2. الحديث النبوي الشريف

## المصادر

3. ديوان ابن زيدون ورسائله، تح: علي عبد العظيم، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، (دط)، ج.م.ع، (دت).
4. ديوان ابن زيدون رسائله أخباره شعر الملكين، شرح وضبط وتصنيف: كامل كيلاني وعبد الرحمن خليفة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط1، ج.م.ع، 1351هـ/1932م.

## المراجع

### I. الكتب

5. الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، الآمدي أبو القاسم الحسن بن بشر، تح: السيد أحمد صقر وعبد الله المحارب، دار المعارف، ط4، ج1، القاهرة، 1994م.
6. التداولية اليوم علم جديد في التواصل، آن روبول وجاك بوشلار، ترجمة: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، مراجعة: لطيف زيتوني، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، لبنان، 2003م.
7. عصر ابن زيدون، جمعة شيخة، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، (دط)، 2004م.

8. القصديّة بحث في فلسفة العقل، جون سيرل، ترجمة: أحمد الأنصاري، دار الكتاب العربي، (دط)، بيروت، لبنان، 2009م.
9. مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، الزاوي بغورة، المجلس الأعلى للثقافة، (دط)، (دت)، 2000م.
10. علم النفس والأدب، سامي الدروبي، دار المعارف، ط2، القاهرة، (دت).
11. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، الشنتريني أبو الحسن عل بن بسّام، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، (دط)، بيروت، لبنان، مج1، 1417هـ/1997م.
12. نوابغ الفكر العربي ابن زيدون، شوقي ضيف، دار المعارف، ط11، القاهرة، (دت).
13. تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، الصفدي خليل بن أيّك، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، (دط)، 1969م.
14. التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي إلى سقوط غرناطة، عبد الرحمن علي الحجي، دار القلم، ط2، دمشق، بيروت، 1402هـ/1981م.
15. استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، طرابلس، ليبيا، 2004م.
16. أعلام العرب ابن زيدون، علي عبد العظيم، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، (دط)، القاهرة، 1967م.
17. الدر النضيد في أدب المفيد والمستفيد، الغزي أبو البركات بدر الدين محمد بن محمد، تحقيق: أبو يعقوب نشأت بن كمال المصري، مكتبة النوعية الإسلامية للتحقيق والنشر والبحث العلمي، ط2، القاهرة، ج.م.ع، 2009م.

18. المعجب في تلخيص أخبار المغرب، المراكشي عبد الواحد، تح: محمد سعيد العريان، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، (دط)، (دت).
19. الخطابة أصولها تاريخها في أزهى عصورها عند العرب، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، ط2، الكويت، 1980م.
20. المغرب والأندلس آفاق إسلامية وحضارة إنسانية ومباحث أدبية، مصطفى الشكعة، دار الكتب الإسلامية، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، ط1، 1987م.
21. إظهار المكنون من الرسالة الجدية لابن زيدون، مصطفى العناني، مطبعة الواعظ، ط2، ج.م.ع، 1324هـ/1906م.
22. تاريخ الأندلس، المؤلف مجهول، تح: عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، ط1، لبنان، 2007.

## II. المعاجم

23. معجم المعاني الجامع معنى "استراتيجية"، تح: أحمد الشرقاوي إقبال، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1993م.
24. قاموس المنهل (قاموس فرنسي-عربي)، سهيل إدريس، دار الكتاب، ط46، بيروت، لبنان، 2015م.
25. القاموس المحيط، الفيروز أبادي مجد الدين بن يعقوب، تح: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، إشراف: محمد نعيم العرقسوسي، (دط)، (دت).
26. لسان العرب، ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم، دار صادر، بيروت، لبنان.

### III. الرسائل الجامعية

27. نظرية الشعر عند ابن رشيق القيرواني (ماجستير)، فريدة مقلاتي، إشراف: محمد زرمان، جامعة الحاج لخضر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2008/2009م، باتنة، الجزائر.

### IV. مقالات المجلات

28. استراتيجية الإقناع في الخطاب اللغوي التواصلي، أمحمد عرابي، مجلة (رفوف)، مخبر المخطوطات الجزائرية في غرب إفريقيا، جامعة أدرار، العدد4، 2014م، الجزائر.

29. الاستراتيجية التضامنية في قصة شعيب (عليه السلام) في القرآن الكريم مقارنة تداولية، إيهاب سعد شفطر، مجلة اللغويات والثقافات المقارنة، العدد1، مجلد14، 2022م، جامعة الفيوم، مصر.

30. بلاغة الإقناع في المناظرة الدينية نماذج مختارة، تمام حمد المنيزل، المجلة الدولية للدراسات اللغوية والأدبية العربية، العدد1، مجلد2، 2020م.

31. المداخل النظرية لتحليل مفهوم السلطة، زواوي نوال، مجلة (مدارات) للعلوم الاجتماعية والإنسانية، المركز الجامعي غليزان، العدد3، جانفي 2021م، الجزائر.

32. الاستراتيجية التوجيهية في رسائل يوسف بن تاشفين مقارنة تداولية، صارة مزياني وفاتح حمبلي، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، العدد5، مجلد9، 2020م، جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي، الجزائر.

33. البعد التلمحي للخطاب الشعري عند أحمد شوقي مقارنة تداولية، عدنان ثامر، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، العدد3، مجلد10، 2021م.

34. التلميح في الخطاب الأدبي نثر الدّر للآبي نموذجاً، غفران علي مفتن الكعبي وجميل بدوي حمد الزهيري، مجلة قراءات، العدد 1، مجلد 14، مجلة واسط، العراق.
35. استراتيجيات الإقناع المستخدمة في معالجة قضايا حقوق الإنسان في البرامج الحوارية ومدى تفاعل الجمهور معها عبر شبكات التواصل الاجتماعي، لارا أمجد محمد وميارا فؤاد ابراهيم، المجلة العربية لبحوث الاتصال والإعلام الرقمي، العدد 4، 2023م.
36. الاستراتيجية التوجيهية في خطاب ابراهيمي مقارنة تداولية، محمد مدور، مجلة الإبراهيمي للآداب والعلوم الإنسانية، العدد 2، 2020م، جامعة غرداية، الجزائر.
37. سلطة المتكلم في النص ودلالة المقصدية عند عبد القاهر الجرحاني، يوسف بن نافلة، دراسات لسانية، العدد 2، مجلد 5، جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف، 2021/2020م، الجزائر.
38. نظرية المطابقة بين الإرث البلاغي ودراسات سيد قطب، سميرة شادلي وآخرون، مجلة عود الند، العدد 27، 2008.

## V. المقالات الشخصية

39. أساليب الإقناع وتأثيراتها الإيجابية من خلال الأحاديث النبوية، سلاف لقيط، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر.
40. استراتيجيات الخطاب في الدراسات النظرية والممارسات الواقعية، عبد الهادي بن ظافر الشهري.
41. وظائف اللغة في ضوء نظريات الاستعمال وظيفتا الإنجاز والحجاج أنموذجاً، عمر بوقمرة، جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف، الجزائر.



# الفهرس

## فهرس المحتويات

| الصفحة |                                                                     |
|--------|---------------------------------------------------------------------|
|        | شكر                                                                 |
|        | مقدمة                                                               |
| 08     | الفصل الأول: ضبط مصطلحات الدراسة .....                              |
| 09     | المبحث الأول: الإطار المفاهيمي.....                                 |
| 09     | المطلب الأول: تعريف الاستراتيجية .....                              |
| 10     | المطلب الثاني: تعريف الخطاب.....                                    |
| 12     | المطلب الثالث: مفهوم استراتيجية الخطاب.....                         |
| 17     | المطلب الرابع: مفهوم التداولية.....                                 |
| 18     | المبحث الثاني: الاستراتيجيات في خطاب ابن زيدون .....                |
| 18     | المطلب الأول: أنواع الاستراتيجيات.....                              |
| 31     | المطلب الثاني: خطاب ابن زيدون.....                                  |
| 41     | الفصل الثاني (الإطار التطبيقي).....                                 |
| 42     | المبحث الأول: الاستراتيجية التضامنية.....                           |
| 44     | المطلب الأول: مسوغات الاستراتيجية التضامنية.....                    |
| 46     | المطلب الثاني: الأدوات والآليات اللغوية للاستراتيجية التضامنية....  |
| 50     | المبحث الثاني: الاستراتيجية التوجيهية.....                          |
| 54     | المطلب الأول: مسوغات الاستراتيجية التوجيهية.....                    |
| 56     | المطلب الثاني: الوسائل اللغوية للاستراتيجية التوجيهية.....          |
| 61     | المبحث الثالث: الاستراتيجية التلميحية.....                          |
| 65     | المطلب الأول: مسوغات الاستراتيجية التلميحية.....                    |
| 67     | المطلب الثاني: الأدوات والآليات اللغوية للاستراتيجية التلميحية..... |
| 76     | المبحث الرابع: الاستراتيجية الإقناعية.....                          |
| 80     | المطلب الأول: مسوغات الاستراتيجية الإقناعية.....                    |

|     |                                                            |
|-----|------------------------------------------------------------|
| 82  | المطلب الثاني: الأدوات اللغوية للاستراتيجية الإقناعية..... |
| 90  | الخاتمة.....                                               |
| 97  | الملاحق.....                                               |
| 98  | الملحق الأول: ترجمة لابن زيدون.....                        |
| 117 | الملحق الثاني: الرسالة الجديدة.....                        |
| 126 | المدونة.....                                               |
| 135 | قائمة المراجع.....                                         |
| 141 | الفهرس.....                                                |

## الملخص

نشأ ابن زيدون في أسرة متعلمة ومتقفة؛ فأخذ عن أفرادها هذه العلوم وبرع فيها فكان نعم الوارث، فاكسب من تربيته شخصية معتدة بنفسها، تطلب المعالي وتتعالى عن سفاسف الأمور؛ فقد طلب المنصب والتقرب من الأمراء، وكان له ذلك، فقد عين سفيراً لعلمه وأدبه بين قرطبة وإشبيلية، لكن حساده دبروا له المكائد حتى سجنوه، إلا أنه لم ييأس واستخدم علمه كسلاح يدافع به عن نفسه؛ فقد كتب الرسالة الجدية من سجنه يترجى فيها الأمير ليطلق سراحه، ويكمل مسيرته نحو حلمه.

تضمنت هذه الرسالة هبارات ومقاطع لغوية ذات لغة فخمة وراقية، مما استدعى اللجوء أثناء الدراسة إلى تطبيق المنهج التداولي بآلياته وأدواته عليها للوصول إلى فك أسرار ومقاصد تلك الرسالة، وقد استخدم الأديب جميع استراتيجيات التداولية لأجل تحقيق هدفه وهو الخروج من السجن، ولكنه لم يفلح في ذلك، فاضطر للفرار منه.

**الكلمات المفتاحية:** الأدب، اللغة، التداولية، الاستراتيجية، الآليات.

### Abstract:

Ibn Zaydoun grew up in an educated and cultured family. So he took these sciences from its members and excelled in them, and was the best heir. Through his upbringing, he acquired a self-confident personality that sought excellence and rose above the trivial matters. He asked for position and closeness to the princes, and he had that, He was appointed as an ambassador for his knowledge and literature between Cordoba and Seville, but his envious people plotted against him until they imprisoned him. However, he did not despair and used his knowledge as a weapon with which to defend himself. He wrote a serious letter from his prison, begging the prince to release him and continue his journey towards his dream

This message included phrases and linguistic passages with a luxurious and sophisticated language, which necessitated resorting during the study to applying the pragmatic approach with its mechanisms and tools to it in order to decipher the secrets and purposes of that message. The writer used all pragmatic strategies in order to achieve his goal, which is to get out of prison, but he did not succeed in doing so. So he was forced to flee from him.

**Key words:** literature, language, pragmatics, strategy, mechanisms.